تجربة فريدة وأبطال حقيقيون

أنا وابني وست أرجل

هبة هنداوي

سادر للكتب

لتحويلك إلى الجروب أضغط هنا

لتحويلك إلى الموقع أضغط هنا

للمزيد من الروايات والكتب الحصرية
انضموا لجروب ساحر الكتب

او زيارة موقعنا sa7eralkutub.com

إهداء

إلى ابني محمد الصغير الكبير،

إلى كل مريض ومبتلى،

إلى الأستاذ الدكتور/ هاني حفني الذي أضاء لنا عتمة الطريق؛

ولولاه ما كان هذا الكتاب.

مقدمة

من الانغماس في ترتيب حقائب السفر وأوراقه وترقب أيام من السعادة والمرح إلى ترتيب أوراق الأشعة والتحاليل والانتظار في عيادات الأطباء. خطوة عرجاء تتلوها ثانية فثالثة فمجموعة من الخطوات العرجاء التي كادت تحيد بي وبابني عن طريقنا اليومي إلى طريق آخر لا علم لنا به! عندما تتبدل الأحوال بين عشية وضحاها تتبدل معها الأيام والأفكار وتتبدل معها الروح والأحلام.

رحلة مضنية من الخوف والترقب والبحث عن حل لمعضلة نادرة ألمت بي وبطفلي الذي لم يبلغ الثامنة بعد. قصة حقيقية من رحم المعاناة تمخضت عن تجربة مثيرة وإنجازات قياسية. بدأت الرحلة غير المتوقعة والمعركة المضنية مع غريم نادر وهو مرض (تنخر العظام أو ما يعرف بمرض ليج كالفيه برثز) منذ ثلاثة أعوام ولم تنتهِ بعد إلا أننا أحرزنا فيها تقدما ملحوظا. وفي عمق المحنة تجلت المنحة

لتمنحنا القوة والصلابة والعزيمة ولتفتح لنا آفاقا جديدة لم نكن لنتخيلها.

في بطن حوت الحيرة والخوف كانت الكتابة ملاذي الآمن وقررت كتابة تجربتي لعلها تكون مرشدا لكل قارئ مرَّ بتجربة مرض أو أي تجربة أخرى آلمته أو تؤلمه. قصتي سيرة ذاتية لكل أم استيقظت على كابوس مخيف، لكل أم تئن كل خلية في جسمها وهي ترى صغيرها لا يقدر على الحركة ويعاني بلا حول له ولا قوة. قصتي لكل بطل صغير ابتليَ في جسمه ومنعه مرض ما ـ صغر أو كبر ـ من اللعب والانطلاق ومشاركة أصدقائه في كل ما تعنيه الطفولة من لهو ومرح. قصتي تبرز قوة النفس البشرية التي مهما تكالبت عليها الهموم والمسئوليات يمكنها أن تنهض كمارد جبار يتجاوز كل الحدود ويحطم كل الحواجز. إنه الأمل وإنها الإرادة. في ثنايا القصة يبرز الفراق ولوعته وفقدان السند والمعين في أحلك اللحظات التي يمكن أن يكون فيها الإنسان في أمسّ الحاجة ليد حانية.

تخمد اليد الحانية وتتقاذفنا الأمواج لكن تثبت السفينة في وجه العواصف العاتية. وكلما اشتدت الظلمة كان الدعاء هو الملاذ. لا فائدة من الغضب والتذمر بل الصبر واليقين والاستعانة بالله والتسليم بقضائه هو المرشد والمخرج. لا مخرج من الابتلاء إلا بالرجوع إلى خالق الابتلاء. ولا بد من الوصول لنهاية الطريق مهما بعدت المسافات.

تحول طفلي الصغير خلال رحلة المرض من طفل صغير لا همَّ له سوى اللعب إلى طفل آخر أكثر صلابة وتحملا للألم. تعلم معنى الصبر والشجاعة وأهمية العلم والمعرفة. شعر بمعانٍ واكتسب ما لم أكن أتوقع أن يكتسبه في وقت قليل. عرف معنى الصحة ونعمة السلامة في الجسم وأصبح أرق قلبا وأكثر إحساسا بمعاناة كل من حوله وكل طفل رآه وقد فقد نعمة يتمتع بها غيره. بدأ القصة صغيرا وانتهى منها كبيرا.

استبدل ساقيه بعكازين لمدة ستة أشهر

فأصبحت لديه أربع أرجل. وبدلا من الاستيقاظ صباحا للذهاب إلى المدرسة كغيره من الأطفال أصبح يصحو متألما باكيا. وجمع مع كتبه وأقلامه عكازين، وشاشا، وضمادات، وأربطة. وأصبح يلازمه جهاز معدني مؤلم يطل بارزا من فخذه الصغيرة الضعيفة فيؤلمه ويحد من حركته. لكنه صبر وقبل التحدي وانتصر في معركته.

ولأننا تعلمنا الكثير في هذه الرحلة فقد قررت أن أكتبها لعلها تكون نبراسا ومعينا لكل أم ولكل طفل تحول بهما الحال بين عشية وضحاها إلى أم لطفل مريض وإلى طفل مريض أجبرته الأيام على التخلي عن ملاهي الطفولة ومفرداتها واستبدالها بمصطلحات علمية، وغرفة عمليات، وزيارات متكررة للأطباء، وحرمان عام كامل من الذهاب للمدرسة ورؤيته رفاقه.

أحيانا أتخيل نفسي وقد انهرت واكتأبت وانزويت بابني في انتظار المجهول. كيف يمكن أن

يكون حالي وحاله؟ هل كنا سنخرج من بطن الحوت يوما ما، أم كانت ستتقاذفنا أمواج الحيرة والتردد بلا طائل؟ ماذا لو لم أدرس الحالة جيدا وأبحث عن أصل المرض وكيفية علاجه وأستميت في البحث عن مجموعات الدعم ورفقاء الطريق لأنهل من خبراتهم الحياتية؟ ماذا لو كنت قد استسلمت لأول رأي طبي عرض عليّ؟ ماذا لو لم أستعن بالله وألملم شعاث نفسي؟ ماذا لو أصيب ابني بالاكتئاب؟ ماذا لو تخلف دراسيا بسبب مرضه؟ هل كان سيؤثر هذا عليه نفسيا واجتماعيا؟ مهلا، بل ماذا لو تجاهلت الأمر برمته منذ البداية ولم أسعَ لمعرفة سبب العرج؟ ماذا لو لم أفكر في سبب الألم الشديد؟ ماذا لو آثرت السلامة؟ هل كنت سأجنب نفسي وابني كل ما مرَّ بنا؟

يمكنك أن تتعثر قليلا في الطريق لكن مهمتك أن تحول عثرتك لوثبة قوية. وثبة تعوض بها ما فاتك وتدفعك للأمام بقوة وثبات. كانت تجربتي مع مرض نادر ليس له علاج ثابت ولا نتيجة مضمونة،

والتحدي الذي قمت به في انتشال ابني من الهوة التي وقع بها سببين في كتابة (أنا وابني وست أرجل)، لعله يكون هاديا لأم أو أب في طريق مظلم. فهي قصة حقيقية من ملفات أم مصرية.

هبة هنداوي

القاهرة ٢٠١٨

١

خطوة للأمام
..خطوة للخلف..خطوة للأمام

ـ «كندا! لله الأمر من قبل ومن بعد»!

كان هذا ردي على زوجي «أحمد» عندما اتصل بي ليخبرني بوصول رسالة قبوله من جامعة ماك ماستر بكندا وحصوله على بعثة دراسية جديدة. لقد استخرنا الله بين الذهاب لبريطانيا وبين كندا وها قد أغلق باب وفتح الآخر فعلى بركة الله! حاولت أن أكون حيادية وأتقبل الأمر بصدر رحب إلا أنه كان يعلم تمام العلم أنني كنت أفضل لو أن الموافقة جاءت من جامعة بريطانية. إنها بعثة دراسية قصيرة لمدة ستة أشهر لا ثلاث سنوات كما بعثة الدكتوراه السابقة التي مرَّت عليها ستة أعوام. كم انتظرت هذه البعثة بفارغ الصبر منذ عودتنا من أسكتلندا. لقد قضيت وقتا متميزا ومثمرا وأنا برفقته في أثناء دراسته، وها قد حان وقت تكرار

التجربة التي آمل من كل قلبي أن تكون ـ برغم قصر مدتها ـ كسابقتها نجاحا وإثارة. لقد تربعت سنوات البعثة الثلاث على عرش ذاكرتنا جميعا. مرت عليّ الذكريات سريعة متلاحقة؛ الجامعة، الأصدقاء، الأمطار، الطبيعة الجميلة، مدرسة الأولاد، شهادة الدكتوراه، دبلومة الترجمة، العمل التطوعي، وأخيرا ولادة «محمد» ابني قبل عودتنا لأرض الوطن. أما «يوسف» الصغير فولد في مصر ولا يعلم أي شيء عما نتحدث عنه مرارا وتكرارا بلا كلل ولا ملل.

لن أكون سوى مرافقة له؛ لذا فرغبتي ما هي إلا شيء ثانوي، فالمهم هو صاحب الشأن الذي عليه أن يختار ما يوافق دراسته وما يكون فيه صالح أمره. كنت منحازة لبريطانيا بكل جوارحي فمنذ عودتي منها وأنا أعيش على أمل العودة لها يوما ما. أما عن سبب تفضيلي لبريطانيا، فهو أنني وبعد أن قضيت فيها ثلاث سنوات وتجولت في شوارعها واندمجت في مجتمعها ودرست بها واحتككت بكل الطوائف، والمرافق، والخبرات كانت فكرة العودة لها تمثل

العودة بالزمن للوراء؛ لأيام كانت من أحلى أيام حياتي. وفكرة العودة لقضاء ستة أشهر في أسكتلندا بعد غياب ما يقرب من سبع سنوات أمر مثير طال انتظاره؛ سأقابل أصدقائي هناك، وأمشي تحت المطر الذي لا ينقطع. سأتجول في كل الطرق والشوارع التي ألفتها واتسع صدرها لي في كل وقت صباحا ومساء، في اللهو وفي الدراسة، في الأيام المشمسة وفي الأيام التي لم ينقطع فيها المطر.

كانت وما زالت فكرة كتابة مذكراتي عن فترة البعثة تراودني بشدة وحالت الحياة الطاحنة في مصر ومسئولياتي التي لا تنقطع ولا تنتهي عن أسرتي الصغيرة والكبيرة عن تحقيق حلمي المِلح. كانت فكرة العودة لأرض الواقع الجميل وما يمكن أن تمثله من محفز لانطلاق سيل الذكريات والقصص والحكايات تستحق العمل من أجلها بكل استماتة. كنت في انتظار العودة لأكتب مذكراتي من على أرض الواقع. ولكن قدر الله وما شاء فعل. لعل

تغيير المكان يحمل معه فيضا جديدا من التجارب السعيدة والذكريات الجديدة.

تضاربت الأفكار في عقلي بين قبول واعتراض. يا لهذا الإنسان! ألم تصابي بنفس خيبة الأمل عندما كنتِ تريدين السفر لأمريكا في البعثة الأولى وجاء زوجك إليك بخبر السفر إلى بريطانيا؟ ألم تصابي بالإحباط لأنك لن تذهبي إلى أمريكا أرض الأحلام؟ ألم تثبت لك الأيام أن أسكتلندا حملت لك ما لم يكن في الحسبان؟

ألم يخلف الله ظنونك؟ لقد حملت لك الأيام هناك فيضا من التجارب والذكريات فاقت توقعاتك.

أما عن الأصحاب فحدث ولا حرج. أنا بفضل الله من هؤلاء الأشخاص الذين يحظون بقلوب محبة في كل مكان فلن يعجزني المكان ولا البلد. وكما أن لي أصدقاء في بريطانيا وأسكتلندا سأستمتع برفقتهم وصحبتهم فهناك لي في كندا مثلهم. لن أكون في غربة ولن تتقطع بي السبل هناك. كانت

الأفكار تتصارع في ذهني بين قبول الفكرة ورفضها. هرعت لأخبر أصدقائي في كندا وبريطانيا بتغيير بوصلة الدراسة. سيفرح فريق ويحزن الآخر. فرحت صديقتان وحزنت أخريان. لي صديقتان من أيام الدراسة كما أن لي إحدى قريباتي هناك في زيارة لأهلها وستمكث لبعض الوقت في ولاية مجاورة. الآن وقد تحددت بوصلة السفر فعليّ أن أسأل عن كل تفاصيل الحياة في كندا التي أجهلها تماما. كان السفر لبريطانيا سيوفر عليّ الكثير من الجهد والأسئلة لكن الأمر مختلف تماما هذه المرة. أجهل تماما أي شيء عن طبيعة الحياة، والشوارع، وأهل البلد. سألتهم النصيحة فيما يختص بالدراسة، والحياة الاجتماعية، والمادية، وكل تفاصيلها اليومية لأسرة من ستة أشخاص وجاء الرد المخلص المتضارب! شجعتني «مروة» باتخاذ خطوة القدوم مع زوجي مهما تكبدت من مصاريف ومشقة فهي فرصة لن تعوض وتجربة مثيرة للأولاد حيث كانوا صغارا في التجربة السابقة في أسكتلندا

ولا شك ستكون التجربة مختلفة هذه المرة.

ـ «تعالي بلا شك! لا تضيعي هذه الفرصة التي لن تتكرر. كبر أولادك وسيستمتعون بالبلد هنا فهو جميل وهادئ ومدفون في الثلوج في الشتاء!».

الصديقة الأخرى «منة» كان رأيها مخالفا. كانت ترى أن المدة قصيرة وأن الطقس سيئ جدا في هذه الفترة بدءا من شهر يناير وحتى شهر يونيو، فسينتهي الأمر بالجلوس بالمنزل وتكبد الكثير من المصاريف بلا جدوى. كانت ترى أنني لست خفيفة الأحمال كما في السابق حيث كان جُلّ مسئوليتي طفلين. أما هذه المرة فأنا أم لأربعة أطفال وإن كان أكبرهما شارف على السابعة عشرة!

ـ «يا عزيزتي ليت الأمور تسير بالسهولة التي تحلمين بها. هذه كندا لا أسكتلندا. الطقس في غاية السوء شتاء ولا يمكنك السير في الشارع بصحبة الأولاد. ستحتاجين لسيارة حتما فالاعتماد على المواصلات العامة في الثلج مخاطرة. هذا ناهيك

عن المسكن الذي سيكلفك الكثير مثل مصاريف التدفئة والكهرباء وما إلى ذلك. ستنفقين الكثير من المال بلا جدوى وسينتهي بك الحال حبيسة المنزل الذي ربما يكون بلا أثاث حتى! كوني واقعية! ستة أشهر لا تكفي خاصة أنها تبدأ في يناير أسوأ شهور السنة هنا في كندا!».

كان توفير مسكن مناسب لمدة ستة أشهر فقط أمرا باهظ التكاليف، كما أن الشتاء القارس في يناير وما بعده يعني ثلوجا كثيفة تغطي الأرض ويستحيل معها الاعتماد على وسائل المواصلات مما يستوجب توفر سيارة خاصة للانتقالات العائلية. أثق تماما في الرأيين وفي إخلاص صديقتيّ في نصحهما. كانت وجهة نظر كل منها معتبرة ومنطقية وكنت مع ذلك أميل لتنفيذ خطتي مهما كلفني الأمر. كنت في مرحلة خانقة من مراحل حياتي. كانت الحياة في القاهرة مثقلة بالهموم والمسئوليات والتفاصيل التي لا فكاك منها. لا يملك زوجي رفاهية السفر في أي وقت فإذا لم نستغل

فترة سفره الإجباري فلن أستطيع تكرارها أبدا ولا حتى للسياحة.

كنت في حاجة ملحة لترك كل شيء والابتعاد قليلا عن صخب الحياة وزخمها المتواصل. كنت في أمسّ الحاجة لهدنة أختلي فيها بنفسي وبعائلتي بعيدا عن ضغوط الحياة، والدراسة، والأهل، والالتزامات الأدبية الخانقة، والالتزامات المادية الطاحنة. كنت أتوق شوقا لهواء مختلف، ولسماء مختلفة، ولأرض جديدة تطؤها قدماي!

أما قريبتي العزيزة فصدمتني نصيحتها بأرض الواقع المؤلمة! انتزعتني من التحليق عاليا وردتني للقيود والأغلال من جديد.

ـ «ماذا عن أمك؟ كيف ستتركينها؟ هل فقدت عقلك؟ عودي لرشدك يا فتاة! هل تعلم بعزمك على السفر كل هذه المدة؟ كيف يمكنك تركها كل هذا الوقت؟».

شكرا «نوران» لانتزاعي من أحلامي الوردية

والعودة بي إلى أرض الواقع الأليم! نعم، أدرك تماما حجم مسئوليتي تجاه أمي المريضة التي عجز الأطباء عن إيجاد سبب لتدهور حالتها الصحية وعجزها عن المشي والحركة. لقد تدهورت عضلات جسمها كله وأصبحت غير قادرة على المشي أو القيام بأبسط متطلبات الحياة اليومية ويوما بعد يوم تزداد ضعفا وتزداد طلباتها الجسدية والنفسية. أنا البنت الكبرى التي عليها تحمل كل الأعباء وتلبية كل الطلبات والرغبات وتحمل مسئولية القاصي والداني بلا كلل ولا ملل. أنا من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف يستخدمون كلمات مثل (لا أقدر)، (لا أعلم) أو (ربما في وقت لاحق). أنا دائما تحت الطلب في أي وقت ولكل الناس. أولوياتي كانت دوما خاطئة مما سبب لي الكثير من المشكلات مع زوجي ومع أولادي. كانت أمي المسكينة مريضة لكنها لا ترى فيّ إلا ابنتها الكبرى التي لا تستطيع الاستغناء عنها، وأحيانا كنت أتساءل إن كانت أمي قد نسيت أنني زوجة وأم لأربعة أطفال في سنوات

عمرية مختلفة أكبرهم في السابعة عشرة من عمره وأصغرهم في الرابعة! اختلطت طلباتها الملحة بتلك التي يمكن تأجيلها لوقت لاحق. كان الأمر يتعدى حدود الرعاية الطبية لها للمرافقة اليومية والرعاية النفسية والتزام صحبتها. كان الوضع معقدا ويصعب شرحه، كانت تريد أنيسا ملازما لها لأنها عجزت حتى عن الصعود لشقتي التي لا تفصلني عنها إلا بضع درجات من السلم. الضغوط تتزايد وتتزايد ولا حيلة لي ولا فكاك إلا بعذر قهري وهو السفر برفقة زوجي. لقد تحملت الكثير وآن الأوان ليتحمل غيري نصيبه من المسئولية.

احتفظت بالأمر سرا شخصيا حتى حين، لا لشيء إلا لأجنّب نفسي مناقشات وتضاربا للآراء أنا في غنى عنها وقد حسمت أمري. شرعت في اتخاذ كل الإجراءات اللازمة للسفر. وكتبت قائمة بها بدءا بتجديد جوازات السفر لي وللأولاد والذهاب للمدرسة لمعرفة كيفية تسوية الوضع فيما يتعلق بغياب الأولاد عن الدراسة ثم إمكانية العودة لأداء

امتحانات آخر العام الدراسي.

ذهب زوجي للتقديم على تأشيرة الدخول من مكتب التأشيرات الكندية وأكدوا له أحقيته ـ كدارس ـ في أن تلتحق به أسرته وأشاروا عليه بتجهيز كل المستندات والوثائق اللازمة قبل التقديم لنا حتى لا نترك مجالا لرفض منحنا تأشيرة الدخول. كانت نصيحة أحد الموظفين هي تجهيز أوراق ومستندات رسمية تفيد التحاق الأولاد بالمدرسة في مصر بالإضافة إلى بيان بحساباتنا المصرفية وأي أملاك أخرى لي، وكل ما يفيد بارتباطنا بالوطن وعدم عزمنا على الهجرة أو اتخاذ السفر ذريعة لها. فهمت مقصد الموظف وشرعت في تجهيز المطلوب بكل حماسة. بيانات القيد بالمدرسة كان لا بد من ختمها بختم النسر من الإدارات التعليمية المختلفة حيث إن كل ابن من أبنائي في مرحلة تعليمية مختلفة. وبدأت جولتي بين الإدارات التعليمية شرقا وغربا وذهابا وإيابا بدءا بالمرحلة الابتدائية وانتهاء بالمرحلة الثانوية. وتحملت كل

الروتين القاتل وكل التفاصيل مرغمة وصابرة على أمل أن أجلس بعد قليل في كندا تحت ثلج يطفئ نار كل هذا العناء. وذهبت للبنك لأطلب كشفا بحسابي؛ وترجمت عقود ملكية البيت حتى سيارتي ترجمت رخصتها وأرفقتها بالأوراق، كما أرفقت ما يثبت أن لي عملا ناجحا في مصر كمترجمة حرة. وخطر ببالي أن أكتب خطابا لألحقه بطلب التأشيرة أبين فيه سبب رغبتي في السفر وأنني قد سافرت من قبل برفقة زوجي للمملكة المتحدة، وكيف أنها كانت تجربة ممتعة وعدنا منها بنجاح على جميع الأصعدة. وفي الموعد المحدد ذهبنا جميعا لمكتب التأشيرات.

كان مكتب التأشيرات في الدقي وكنا جميعا في قمة السعادة والحماس. كان أولادي الكبار متحمسين مثلي تماما للتجربة بل كانوا على أتم استعداد لدفع الثمن الباهظ وهو الدراسة المنزلية وحضور الامتحان في الدور الثاني، بل تعدى الأمر بابنتي «يمنى» التي كانت في مرحلة إتمام الشهادة

الإعدادية أن قالت إنها لن تمانع إذا اضطرتها الظروف لإعادة السنة برمتها! كان تفكيرا جنونيا يتوافق مع فورة الشباب واندفاع المراهقين. كان المبنى به مكتب التأشيرات للسفارة الإيطالية وكان يعج بالناس على اختلاف مشاربهم. خليط مثير من البشر أتوا من كل حدب وصوب على أمل تغيير الواقع وفتح آفاق جديدة للعمل والحياة. دخلنا المكتب الهادئ المنظم. وانتظرنا ظهور رقمنا على الشاشة والذي سيقودنا للموظف المختص. كنا قد قمنا مسبقا بملء الاستمارات إلكترونيا على موقعهم. دفعنا الرسوم المقررة وأخذوا بصمات اليد والعين وقدمنا الأوراق المطلوبة وغادرنا بثقة وأمل.

كان موعد سفر زوجي قد اقترب وكان لا بد من تأجير شقة في كندا لينزل فيها حال وصوله ولنلحق به هناك. تحلقنا حول جهاز الكمبيوتر وتصفحنا عددا من مواقع العقارات الكندية في أونتاريو أو مدينة هاميلتون تحديدا. ما أحلى العلم الذي أتاح لنا فتح الإنترنت والتجول بين الشقق والمناطق السكنية

المختلفة! كم هي رائعة هذه التكنولوجيا التي تتيح لنا الاطلاع على الشقق السكنية، بل التجول داخلها وتفقد كل شبر فيها بنقرة زر! نقرة زر نقلتنا في ثوانٍ معدودة من القاهرة لولاية أونتاريو الكندية نتفحص شوارعها ومحالها التجارية ونبحث فيها عن مسكن مؤقت جديد. الأسعار مرتفعة حقا كما قالت لي صديقتي «منة»؛ ولأن الفترة قصيرة فالحصول على عقد إيجار لمدة ستة أشهر كان يعني فرصا أقل لأن كل الشركات تفضل عقودا طويلة الأمد. وبروح المغامرة المعتادة قررت أن نؤجر شقة بدون أثاث؛ فالأولوية كانت لمكان قريب من الجامعة ومن المرافق العامة كالمدارس، والحدائق العامة، والسوق، ولم أكن أبالي بالأثاث فهي مدة قصيرة ومغامرة منذ البداية. خبرتي السابقة في السفر برفقة زوج طالب علم أتاحت لي التعرف على عالم الأثاث المستعمل، وتغيرت نظرتي الشرقية المادية لفكرة شراء الأثاث المستعمل. لم نعد نرى غضاضة في ذلك؛ فالأمر مؤقت على كل حال وبعض الأثاث

في حالة جيدة جدا. علمتنا الغربة أهمية التفكير العملي المنطقي لا التفكير الاستهلاكي. لم نعد نعبأ بكلام الناس ولا آرائهم؛ ففي الغرب لا يتدخل أحد في شئون غيره ولا يعيب عليه شيئا. الأمور بسيطة والحياة هناك ممتعة لبساطتها؛ ولهذا أحببناها وارتبطنا بها. اتفقت مع زوجي على تأجير شقة كبيرة نوعا ما برغم ارتفاع سعرها حتى تتسع لنا جميعا، على أن أتولى تجهيز الأساسيات بأقل تكلفة، كما فعلت سابقا في جلاسجو.

كانت هذه الشقة الخالية هي أفضل الحلول المتاحة؛ لأن الشقة المفروشة بالأثاث مرتفعة الثمن وستضيِّق علينا في الميزانية التي نحتاجها كأولوية للحركة والتجول بحرية لزيارة شلالات نياجرا وغيرها من الأماكن المثيرة للاهتمام في كندا. كان سعرها مرتفعا بطبيعة الحال نظرا إلى فرق العملة بين الدولار الكندي والجنيه المصري، وكان عليه الاستعانة بمن سبقوه من الزملاء في السفر لترتيب الأمر نيابة عنه. كانت الشقة التي وقع عليها

اختيارنا في منطقة قريبة من الجامعة ومن المدارس وهذا ما يهم. وبالاستعانة ببعض أصدقاء زوجي تمت تسوية الأمر مع المالك ودفع الإيجار نقدا مقدما. ونصَّ العقد على أن لا تراجع في مدة العقد لوجود شروط جزائية صارمة.

وبعد أن كللت مهمة البحث عن سكن بنجاح؛ تفرغت لمهمة أخرى وهي البحث عن إمكانية التحاق الأولاد بمدرسة كندية.

ـ لا داعي لذلك فالمدة قصيرة!

ـ ولمَ لا؟ فيمكنهم قضاء ثلاثة أشهر على الأقل هناك، وحتما ستكون تجربة غنية اجتماعيا ولغويا لهم.

تردد زوجي في قبول فكرة إلحاق الأولاد بمدرسة الحي هناك، لكنني كنت أرى أنها سبب أساسي من أسباب السفر التي تحمسني له. وجدت أن القانون لا يمنع التحاقهم كطلاب مستمعين في المدرسة. كم هي سهلة هذه الحياة! وزادت هذه

المعلومة من حماسة الأولاد للسفر. علم الأهل بعزمي على السفر وظنوا أنني أنوي السفر لزيارته في عطلة منتصف العام لا أكثر ولا أقل. لم يتخيل أحدهم حجم الخطة التي اختمرت في عقلي. وجاءت اللحظة الحاسمة وحانت لحظة سفره. ودعناه في المطار وداعا سريعا كوداعنا عندما نسافر في الصيف لقضاء عطلة نهاية العام. كان وداعا تلقائيا مشوبا بيقين في لقاء قريب لن تفصله سوى أيام أو أسابيع معدودة. كنا على يقين أنها ما هي إلا أسابيع قليلة وسنلحق به لنختلي ببعض الوقت الأسري الهادئ بعيدا عن زخم الحياة هنا في مصر. كنت أحلم باستراحة المحارب تلك لي ولزوجي.

منذ اليوم الأول لسفر زوجي شعرت أن العد التنازلي لسفرنا قد بدأ. شرعت في ترتيب أموري استعدادا للحاق به، وكانت لديّ قائمة طويلة من الترتيبات والطلبات. كنت على اتصال دائم بصديقاتي في كندا عبر خدمة الواتساب ورسائله

الفورية. كانت إحداهما تسكن في نفس الولاية وهي أونتاريو، بينما الأخرى لا تبعد سوى بضع ساعات قليلة. كنت متحمسة للقائهما بعد طول غياب فهما من صديقات الطفولة وزميلات الدراسة في المدرسة. أما نوران قريبتي، فلم يكن يبعد منزل أهلها سوى عشرين دقيقة من مسكننا الكندي الجديد. وتأهب الجميع لاستقبالي وازدادت حماستي يوما بعد يوم. جهزت الملابس الضرورية للشتاء القارس في كندا وتوقفت عن شراء المزيد من الطعام حتى يتسنى لي استهلاك ما لديّ في المطبخ والثلاجة من طعام. وأما عن المدرسة، فذهبت لمقابلة مديرة المدرسة التي تفضلت مشكورة بتوضيح الأمر لي فيما يختص بالغياب ثم الحضور لاحقا في آخر العام لأداء امتحانات آخر العام الدراسي. كان القانون ينص على تقديم ما يثبت سفر الأولاد برفقة الوالد خارج البلاد وهو جواز السفر وصورة من تأشيرة السفر والمغادرة والوصول. جهزت الكتب اللازمة للدراسة في

المنزل.

كنت أعلم تماما أنها مغامرة بكل المقاييس لكنها كانت فرصتنا الوحيدة، وكنا جميعا على أتم الاستعداد للمغامرة، والتفريط فيها بمحض إرادتنا كان أمرا مرفوضا تماما عقلا وقلبا. لم تكن الدراسة مشكلة بالنسبة إلى الصغار؛ فابني في الصف الثالث الابتدائي والآخر بالحضانة، لكن ابنتي كانت في نهاية المرحلة الإعدادية وابني الكبير في الصف الثاني الثانوي، أي أن فكرة الدراسة بالمنزل دون الحضور والعودة لأداء امتحانات آخر العام تمثل تحديا كبيرا، قبله الأولاد بصدر رحب وحماسة منقطعة النظير.

ومرت الأيام وعلم الأهل باعتزامي السفر، ولم تكن أمي راضية بطبيعة الحال. كانت ترى تهورا في اعتزامي السفر وتكبد كل هذه المصاريف المادية واختلال منظومة الدراسة للأولاد. كان وجودي مهما لها لكنني لست وحيدتها، وورثت العزيمة والتحدي

منها فعليها تحمل ذلك! لولا اطمئناني لوجود إخوتي وأبي بجوارها ما كنت فعلتها. أعلم تماما أنها لو كانت مكاني لم تكن لتتوانى عن فعل ما أعتزمه. وكل يوم كنت أتفقد بريدي الإلكتروني للمتابعة لعل مكتب التأشيرات أرسل لي للحضور ولكن بلا جدوى. وبدأ زوجي في إرسال صور للمكان الجديد والحدائق المحيطة والشقة الخالية إلا من أريكة مريحة قام بشرائها ليجلس عليها خلال اليوم وينام عليها في المساء، ريثما نلحق به ونستكمل شراء باقي الأثاث. كان يتفقد محال الأثاث ويرسل لي صورا، ولم يكن يكف عن إرسال صور للحلوى والشوكولاتة بأنواعها للأولاد ليمنيهم بتذوق ما لذَّ وطاب. كان «محمد» الصغير أكثرهم حماسةً؛ لأنه لم يكن قد وعى أحداث السفربة الأولى فقد عدت به رضيعا في شهره التاسع. وساعدتني صديقاتي بترشيح بعض المتاجر المناسبة للشراء. كان وجودهم خير معين لي في اتخاذ القرار فلم أكن ذاهبة للمجهول بل على العكس هناك قلوب محبة

ومخلصة في انتظاري. كان موسم الثلوج لم يبدأ بعد في كندا لكن كان الجو شديد البرودة. وكنت على اتصال مع أصدقاء كندا لنرتب وسيلة للقاء هناك فور وصولنا واستقرارنا.

٢

تحول درامي في الأحداث.. خطوة للخلف

وفي أحد الأيام بعد ثلاثة أسابيع من سفر زوجي وصلتني رسالة إلكترونية من مكتب التأشيرات الكندية أن أذهب إليهم في أسرع وقت. كل ما جال بخاطري حينها أن الأمر قد تمَّ، ولمَ العجب، والمسألة تحصيل حاصل كما أكدوا لنا ولن تستغرق منهم وقتا طويلا! فنحن ذاهبون برفقة دارس مبتعث من هيئة عريقة معروفة لجامعة من أعرق الجامعات الكندية وهي جامعة (ماك ماستر)، أي أن التأشيرة مضمونة ولا غبار عليها.

اقترحت عليَّ «إيمان» أخت زوجي أن تأتي ابنتها «تقى» برفقتي في هذا الطريق الطويل، ولسبب ما لم أرفض. وكانت خالتي الحبيبة وأمي الروحية «آمال» تسكن بالقرب من المكتب، اتصلت بها لزيارتها والبقاء بمنزلها حتى الموعد المقرر حتى لا أتأخر. لم يرزق الله خالتي بالأولاد، ولأنني كنت أكبر

الأحفاد وأول فرحتهم فكنت (ابنتها الكبرى)، كما كانت تقول لي دائما. كانت خالتي هي مصدر الأمان والحنان في حياتي وكنت أعيش بدعواتها الصادقة لي في كل وقت وحين. كانت تعلم السر الذي أخفيته عن الجميع وهو اعتزامي قضاء كل مدة البعثة لا فترة عطلة منتصف العام فقط. كانت تشجعني على مرافقة زوجي وتدعو لي، ولم أكن لأطمع في أكثر من هذا. وفي الموعد المقرر غادرت منزلها في اتجاه المكتب. كان الجو شتاءً ممطرا وكئيبا لكنني كنت أحب المطر. وانشغلت بالتفكير في ترتيب خطوات العمل بعد العودة للمنزل. كان هناك الكثير من الترتيبات في الأفق. كنت قد أجريت العديد من الاتصالات مع شركات السياحة لحجز تذاكر السفر وبقيَ الموعد المحدد عالقا يمنع إتمام الحجز. وهأنذا في طريقي إلى هناك وسأعلم حتما بالموعد بعد طول انتظار. سأتصل بـ«رضوى» في مكتب مصر للطيران لتأكيد الحجز! وصلت للمكتب واستلمت المظروف الكبير. سألت الموظفة

في فضول إن كانت قد تمت الموافقة على سفرنا، لكنها هزت رأسها وقالت إن مهمتها تقتصر على تسليم المظروف فقط لا غير.

لم أستطع منع نفسي من فتح المظروف فجلست على أحد الكراسي في قاعة الانتظار وفتحت الظرف الكبير ومددت يدي. أمسكت بجواز سفر من الجوازات الخمسة الموجودة بالإضافة إلى الأوراق الأخرى من بيانات قيد وعقود ملكية وما إلى ذلك وفتحت الجواز. جواز فارغ! لا توجد تأشيرة! لا يوجد ختم! اتسعت عيناي في ذهول وتجمد الدم في عروقي وتيبست أوصالي وأنا أتصفح الجواز بهستيريا. لا شيء! ثم الجواز الثاني والثالث والرابع والخامس! لا شيء! لا توجد تأشيرة.. تمَّ الرفض! ما هذا؟ كيف رفضوا، ولماذا رفضوا؟ ما معنى هذا؟ وجدت خطابا مرفقا لم أستطع قراءته من فرط صدمتي لكنني لمحت كلمة واحدة (لا يوجد سبب للسفر)! تبا لكم! ما هذا الهراء؟

غادرت المكتب وأنا لا أعرف كيف حملتني قدماي أو كيف هبطت السلالم وقطعت الطريق، وكيف وصلت للسيارة وكيف قدتها! كان المطر ينهمر بغزارة وكانت دموعي تسابق الأمطار في شدة الانهمار. كانت الصدمة شديدة ومباغتة. ربما لو كنت بمفردي في السيارة دون رفيقتي لكنت قد فقدت السيطرة على انفعالاتي. لم أكن لأتخيل ذلك مطلقا! لماذا رفضوا؟ لا أصدق! رفض! رفض! ضاع الحلم وانهارت الأحلام. ضاعت الفرصة. لن يلعب أولادي بالثلج. لن نشاهد شلالات نياجرا! لن نطأ أرضا جديدة! لن أتعرف على أصدقاء جدد! لن ألتقي صديقات الطفولة اللاتي لم أرهنَّ منذ أن فرقتنا الجامعة!

ماذا عن الشقة التي قمنا بتأجيرها بل دفعنا إيجارها مقدما؟ لقد ضاعت النقود كلها التي دفعها زوجي بلا طائل! لا تراجع في العقد! وعليه أن يكمل المدة كلها وهو يدفع أضعافا مضاعفة من الدولارات! لن يدخر نقودا حتى بل سنظل نخسر حتى عودته!

تضاربت كل الأفكار المادية، والنفسية، والمعنوية في عقلي بلا هوادة. ولأول مرة أجد نفسي أكره المطر والسحب الدكناء. شعرت كما لو كنت في مشهد درامي من الأدب الإنجليزي القديم؛ حيث تتلازم الأحداث الحزينة مع المطر أو نعيق الغربان. لأول مرة أشعر أن المطر كان فألا سيئا بل نذير شؤم. تعصف بي الأفكار ثم أتمالك نفسي مرة أخرى: قدر الله وما شاء فعل! لقد استخرت الله كثيرا ولعل في الأمر خيرا لا نعلمه! سأظل حبيسة المشاكل والمتاعب والحياة الخانقة! ضاعت الرحلة وتحول الحلم إلى كابوس عجيب! لم يكن الرفض في الحسبان نهائيا. لقد أكدوا له أحقيتنا في اللحاق به وزيارته. يا ترى ماذا تخبئ لي الأشهر الستة القادمة؟

ستة أشهر سأكون فيها مسئولة مسئولية كاملة عن كل شيء، فزوجي خارج البلاد؛ أي أنني مضطرة أدبيا لتحمل مسئوليات أخرى لا طاقة لي بها، وقضاء وقتي في رعاية شئون الآخرين والاهتمام

بمشاكل القاصي والداني. كنت أعلم تماما الوضع البائس الذي ينتظرني والطلبات القاهرة التي سيطلبها مني الجميع. وبكيت كما لم أبكِ من قبل. لست من هؤلاء النسوة اللائي يبكين عندما تشتد عليهن الظروف. أبدا! فلقد كنت دوما صلبة ومتماسكة لكنني انهرت في البكاء في صمت؛ ربما رفعت سقف توقعاتي عاليا فانهار عليَّ السقف بلا رحمة. كانت طبيعة عمل زوجي تمنعنا من تكرار المحاولة متى شئنا وأنى شئنا، فهي إما الآن وإما أنها ضاعت للأبد! ضاعت الفرصة، وضياع الفرصة معناها أنني سأظل حبيسة روتين قاتل وحياة مملة طاحنة إلى ما شاء الله!

كنت أشعر برفيقة رحلتي «تقى» وقد هالها منظري؛ فهي لأول مرة تراني في موقع ضعف وقلة حيلة. لقد اعتادت رؤيتي قوية ومبتسمة. هرعت إلى بيت أهل زوجي الذين حاولوا تخفيف هول الصدمة عليَّ. لقد استخرت الله مرارا وتكرارا وأعلم أنه لا بد أنه الخير، لكنها صدمة لأنها لم تكن متوقعة

بتاتا. لم يساورني أدنى شك في احتمالية رفض طلبات السفر. لم أقرأ الخطاب المرفق فقد انشغلت عيناي بشيء أهم وهو التنفيس عما بداخلي من حزن وإحباط. تجنبت التحدث مع أبنائي ولم أرهم، واتصلت بي خالتي وعلمت بالأمر وحاولت التخفيف عني بكل ما تحمله من حكمة، وحنان، وإيمان.

- ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.. لا تحزني لعله الخير. لقد حاولت واتخذت كل الإجراءات لكنها إرادة الله. تقبلي الأمر بصدر رحب حتى يتقبله الأولاد. حزنك سيحزنهم ورضاكِ سيرضيهم.

كنت أسمع كلامها وأبكي لا أرد ولا أتحدث، أبكي فقط لا غير. لقد كانت تشعر تماما بحجم الإحباط الذي أعاني منه. لقد تمنيت السفر من أعماق قلبي. لقد كنت سأضحي بالغالي والرخيص من أجل هذه الفرصة التي لن تتكرر.

ربما يبدو الأمر مبالغا فيه وردة فعلي غير مفهومة، لكن الله وحده يعلم حجم الضغط الذي كنت أمر به، وما كانت هذه الرحلة تعنيه لي من إعادة ترتيب للأوراق، وانتشال لعلاقة كانت على المحك بيني وبين زوجي وأولادي. إنها إرادة الله وأنا راضية، لكنني فقط مصدومة وخائفة مما يمكن أن تحمله لي الأيام القادمة، وأعجز عن فهم سبب رفض السفارة غير المتوقع نهائيا فالأمر تلقائي كما أخبرونا. ربما أخطأت في مد شراع الأمل بلا حدود. ربما أخطأت في أن أحلم من الأساس! أشعر بأن الأيام القادمة ستحمل معها الكثير من المفاجآت والمشاكل والضغوط. لن يكون هناك مفر ولن يكون هناك فكاك.

عدت إلى البيت في نهاية اليوم، وبعد أن جن الليل وجن جنوني. تجنبت الحديث مع الأولاد وتوضأت وصليت كما لم أصلِّ من قبل. يا ربي أنا راضية بقضائك لكن أفرغ عليَّ صبرا، وحاولت النوم. في الصباح تحدثت مع الأولاد وأخبرتهم بما

حدث. غضبوا بشدة وبكى ابني الصغير «محمد» لأنه أكثرهم تعلقا بأبيه. كانت حقيقة أنه سيظل ستة أشهر بعيدا عن والده أمرا مرفوضا تماما بالنسبة إليه. كان متعلقا بفكرة السفر لأنه ولد في أسكتلندا وعاد منها رضيعا، لم يرها ولم يعاصر كل الأحداث الشائقة التي يتحدث عنها إخوته ليل نهار. كانت كندا بديلا مرضيا له في الوقت الراهن لكن ضاع الحلم. انهارت أحلام الكبار في رؤية كندا وتكوين صداقات جديدة ورؤية شلالات نياجرا والتسوق وغيرها من أحلام المراهقين الحماسية. كانت فكرة قضاء ستة أشهر برفقة والدهم ممتعة لهم؛ فهو طوال العام منهمك تماما في عمله ولا تصادف عطلاته عطلاتهم؛ نظرا إلى ظروف عمله الخاصة. كان دائما منشغلا عنهم وكانت فرصتهم ليعوضوا ما فاتهم من أوقات انشغل عنهم فيها.

أما والدي ووالدتي فتجنبت التحدث معهما وأنا على هذه الحالة. كانت الجليسة الجديدة قد تعاركت مع أمي - وهي رقم عشرين في القائمة - وغادرت

المنزل. كانت ظروف مرض أمي واضطرارها للاعتماد على الغير أمرا مؤلما لها لا تستسيغه نفسها وتجد صعوبة شديدة في تقبله. كانت عصبيةً وحادةً في تعليقاتها، ولم تكن الجليسات بالحكمة الكافية لتفهم الأمر أو مراعاة الحالة النفسية للمريضة. كان جُلّ همهن المال وإن لم يعجبهن العمل مع هذه السيدة يبحثن عن غيرها ويتركن العمل بدون سابق إنذار، ودون مراعاة للفراغ الذي سيحدثنه فجأة أو ضرورة توفير بديل مناسب قبل اتخاذ قرار الرحيل. كانت الحاجة للاستعانة بجليسة كابوسا متكررا كل بضعة أسابيع، ومن تعجبنا لا تعجب أمي وهكذا دواليك! وكان لزاما عليّ وأنا في هذه الحالة من الوهن النفسي والجسماني أن أنزل إليها؛ حيث نسكن معا في منزل عائلي، وأن أبدأ في ممارسة مهامي في العناية بها والقيام بكل طلباتها عوضا عن الجليسة التي غادرت بلا رجعة. لم أستطع مواجهتها ليومين كاملين، ثم كان عليّ الذهاب لأنها كالطفل الصغير الذي يحتاج لمن يرعاه في كل

شئون يومه. ورأتني في حالتي المزرية تلك، وانتقدتني لاندفاعي في التفكير في رفقة زوجي لمكان بعيد كهذا، وتكبد كل التكاليف المادية باهظة الثمن، كما لو كنت لا أدرك حجم المسئوليات الملقاة على عاتقي! ونزل كلامها على نفسي الكسيرة ليزيد من كسرها وتفتيتها، وباتت رؤية المستقبل القادم أوضح وأوضح لي بوجومها وكآبتها. ربما كانت أمي على حق؛ ربما أنا مجنونة ومندفعة ولا أدرك حجم مسئولياتي. ربما ألجمت الأقدار جنوح أحلامي؛ ربما!

وبعد ثلاثة أيام تمالكت أعصابي وفتحت الخطاب المرفق الذي حمل مسوغات الرفض ليزيد من حنقي وغضبي. لقد ذكر الخطاب ستة أسباب للرفض:

- لا يوجد سبب للسفر!

- ليست لي عائلة في كندا لألحق بها!

- لا يوجد تاريخ معتبر سابق للسفر!

- إمكاناتي المادية لا تؤهلني لتحمل تكاليف السفر!

- فشلت - برغم كل ما قدمته من أوراق ومستندات - في إقناع موظف التأشيرات بأنني أعتزم العودة لبلادي بعد انتهاء تأشيرة السماح بالبقاء في كندا.

- لست مرتبطة بالوطن الأم!

من سبب لآخر ازداد غضبي وحنقي، فكلها أسباب استفزازية اضطهادية عارية عن الصحة ولا أساس لها! إنه اضطهاد للعرب وللمسلمين ولا أملك تفسيرا آخر له. لقد تزامنت هذه الأحداث بعد الفعلة الشنعاء في جريدة (شارلي إيبدو) الفرنسية والتي ألصقت كالعادة بالمسلمين، وكان لا بد من أن ندفع جميعا ثمن ما يفعله بعض المجرمين باسم ديننا دين السلام. ليتني لم أقرأ هذا الخطاب المستفز! كيف لا يوجد سبب للسفر وأنا أطلب الإذن لألحق بزوجي؟ كيف لا يوجد دليل على اعتزامي العودة بعد انتهاء

التأشيرة، وأنا قد سافرت معه لمدة ثلاث سنوات للمملكة المتحدة وعدنا جميعا لأرض الوطن بعد حصوله على الدكتوراه وانتهاء مهمته. لو أننا كنا نريد الهجرة لبقينا هناك حيث الاستقرار والأصدقاء بعد ثلاث سنوات من الحياة الكريمة. كيف حكم عليَّ هذا المسئول؟ كيف يرى أن تاريخ السفر السابق للمملكة المتحدة غير معتبر أو معترف به؟ إنها المملكة المتحدة وهي من هي في إجراءات الأمن، لقد كشف علينا أمنيا ولنا ملف هناك، أي أننا لسنا مجهولي الهوية أو نخطط لهجرة غير شرعية. ثم ما أدراه هذا الموظف بقدراتي المادية؟ ألم أرفق كشفا مصرفيا بكل ما أملك وأخبرتهم بكل ما أملكه في الحياة؟ ما معنى أنني غير قادرة ماديا؟ لقد دفعنا الرسوم واستأجرنا مسكنا. ما الكنز الذي عليَّ امتلاكه ليرضيهم ماديا؟

ليته سكت هذا الموظف! ليتهم لم يذكروا أسباب الرفض! ليسوا منصفين ولست راضية ولا مقتنعة بهذه الأسباب الواهية الظالمة. غلى الدم في عروقي

وشعرت بالإهانة وبأنهم يعاملونني كما لو كنت حشرة تحاول التسلل لمكان نظيف ويتم طردها بقسوة، لا زوجة دكتور مهندس في مركز مرموق يدرس في جامعة عريقة ويعمل في بلده في هيئة مرموقة. لسنا متسللين ولا ذاهبين بلا هدى، ولن نختفي في شوارع وضواحي كندا بل مكاننا معروف ويسهل الوصول إلينا في أي لحظة!

ولجأت لاستشارة «نهى» داود الصديقة الصدوقة وأشارت عليّ بتقديم التماس للقنصل. لقد سبق وأن رفضت تأشيرة سفر زوجها لفرنسا عندما كانت هي في رحلة عمل وكان هو مرافقها الوحيد. لقد طلبت مقابلة القنصل وقدمت التماسا وقبله القنصل الفرنسي وسافرا معا. أعجبتني الفكرة وتحمست لها بشدة فلن تعجزني اللغة ولن يعجزني المنطق. كانت الكتابة هي وسيلة الاعتراض الوحيدة التي أملكها. إن لم تغير الأمر فعلى الأقل ربما تشفي غليلي وتهدئ من لوعتي. لملمت شعاث نفسي وقرأت رسالة الرفض أكثر من مرة لأرتب أفكاري وحججي.

فتحت بريدي الإلكتروني وكتبت التماسا للقنصل وذكرت كل أسباب الرفض وفندتها سببا سببا وطلبت إعادة النظر في ملفي. كم كنت في غاية الامتنان للغتي الإنجليزية القوية التي مكنتني من التعبير عن مكنون صدري ومحاججتهم بالبرهان القوي لبطلان كل ما ادعوه من أسباب. أنهيت رسالتي وضغطت زر الإرسال وانزاح ثقل جثم على صدري لعدة أيام. شعرت براحة شديدة عندما أفرغت شحنة غضبي وعدم رضائي عن الرفض. عادت أنفاسي للانتظام مرة أخرى وهدأت في انتظار الرد.

جاء الرد سريعا أن الأمر قد حسم، وأنني إن كنت ما زلت أعتزم السفر فعليّ إعادة تقديم الأوراق التي تثبت تغييرا في الوضع ودفع رسوم جديدة. رفضوا الالتماس! إنها نية مبيتة للرفض إذن! إنه رفض لمجرد الرفض، هكذا بدا لي الأمر بلا جدال. أي تغيير يتحدثون عنه؟ كان قد مرَّ شهر منذ سفر زوجي وضاع الوقت ولم يتبقَّ سوى خمسة أشهر،

لن أضيع شهرا جديدا في إعادة الإجراءات. إعادة تقديم الأوراق يعني دفع مبلغ كبير من المال للرسوم وانتظار الرد لشهر آخر؛ مما يعني ضياعا للوقت وللمال حيث إننا مرتبطون بموعد عودة لأداء امتحانات آخر العام. حسم الأمر وقدر الله وما شاء فعل!

استنفدت كل ما يمكنني عمله وحاولت وفشلت المحاولة، هدأت وبدأت في ترتيب أوراقي ووضع خطة عمل للشهور القادمة. رفض «محمد» ابني رد السفارة وألحَّ عليَّ مرارا وتكرارا في كتابة التماس آخر، وقال غاضبا إنه عندما يكبر ويكون من أهل الحل والعقد سيمنعهم من الدخول لبلادنا كما منعوه من صحبة أبيه!

مسكين هذا الولد! كان في السابعة من عمره ويبكي كل ليلة لأنه يشتاق لوالده. ولد حساس ومشاعره مرهفة. يجب أن أضع خطة لإلهائه وشغل وقته كما يجب. لقد كان دوما مظلوما معي وضاع

حقه وسط حقوق الآخرين والتزاماتي التي لا تنتهي. كان دوما يتمنى ممارسة الرياضة، لكن التزامي برعاية أمي المريضة منعني من إشراكه في أي نشاط؛ حيث إنني يجب أن أظل برفقتها ولا يوجد من يصحبه غيري لأي مكان فوالده مشغول ليل نهار. لقد آن الأوان لأعطيه وقتي واهتمامي. قررت أن أشركه في رياضة بدنية وفي معسكر النادي الشتوي للأطفال في عطلة منتصف العام.

اشترك في المعسكر الشتوي وكان في قمة سعادته. يذهب صباحا في العاشرة ويعود في الثالثة. كان المعسكر يتضمن العديد من الأنشطة كالرسم، والكمبيوتر، والمسرح، والأنشطة الفنية المختلفة بالإضافة إلى المسابقات الرياضية. أكثر ما حاز إعجاب ابني هو التمثيل الصامت ودورة الفوتوشوب. كم احمر خجلا في الاستعراض الراقص في حفلة الختام! كان يقوم بالخطوات الراقصة ببراعة وخفة ويجوب المسرح ذهابا وإيابا في نشاط وسعادة. وانتهى المعسكر وبدأت الدراسة

مجددا وكان لا بد من استمرار خطة الإلهاء. كان سعيدا في الصباح عندما يكون منشغلا، وحزينا عندما يأتي موعد عودة أبيه من العمل ويأتي ليل الشتاء الكئيب. كان يبكي وعندما أسأله كان يقول إن رجله تؤلمه. لم ألقِ للأمر بالا كثيرا، وفسرته بأنه يسعى للفت الانتباه وأنه نفسيا يستدر عطف المحيطين وحبهم، أو ربما أرهقته الاستعدادات للحفل.

كانت الخطوة الثانية هي الاشتراك في نشاط رياضي. اختار رياضة (الكونغ فو) وبرغم أنني لا أميل للرياضات العنيفة فإنني أعطيته الفرصة ليجربها. بدأ التمرين وأعجبني فيه الفترة الطويلة التي يقضونها في الإحماء واللياقة البدنية. «محمد» شهيته ضعيفة، فربما ساهمت الرياضة العنيفة في تعزيز إحساسه بالجوع وزيادة الرغبة في تناول الطعام. كان الإحماء يتضمن الجري حول الملعب عشر مرات ثم بعض التمارين لشد العضلات. بعد أسبوعين وست مرات من التدريب الشاق لم

يتحمس لها، وقال إنها عنيفة ولا يجيد الركل والضرب.

ـ لا بأس يا «محمد». فلنبحث عن رياضة أخرى! ما رأيك في كرة السلة؟

أعجبته الفكرة: نعم، نعم! أحب كرة السلة.

٣

تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.. نصف خطوة

كنت قد بدأت ألاحظ أنه يعرج في بعض الأحيان وأرجعت ذلك إلى الشد العضلي بعد مجهود الكونغ فو الذي لم يعتد عليه، أو لمحاولة جذب الانتباه والفراغ العاطفي بعد سفر والده. لم يكن الأمر مقلقا تماما في البداية فالشكوى ليست مستمرة والعرجة تظهر يوما وتختفي أياما.. وتهيأنا لتدريب كرة السلة واشترى حذاء جديدا، وكرة سلة، وملابس رياضية مناسبة وبدأ التدريب. كنت أجلس بعيدا أشاهده وهو يجري ذهابا وإيابا في الملعب ولم يكن الأمر على ما يرام في رجله! كان يعرج بل كان أحيانا يجر رجله اليمنى وهو يجري! راقبته يوما بعد يوم وكان الأمر مقلقا. حتما ليس جذبا للانتباه فهو في الملعب وسط الجميع ولا يوجد داعٍ لذلك! المسافة التي نمشيها من موقف السيارات مرورا ببوابة النادي حتى نصل للملاعب كانت مسافة ليست بالطويلة، لكنه كان أحيانا يعرج وأحيانا يمشي بانتظام.

يتوقف أحيانا متألما ثم يستأنف المشي بعدها. خطوة عرجاء تتلوها خطوة ثانية فثالثة دقَّ معها ناقوس الخطر؛ هناك خطب ما!

عند العودة للمنزل كان يجد صعوبةً في صعود السلم. يتشبث بالدرابزين كما لو كان في السبعين لا السابعة! شعرت أن الأمر في حاجة للفحص ولا يجب تجاهله! دائما ما كنت أتمنى أن أصبح طبيبة وأتعجب لماذا لم يشجعني أحد على ذلك، برغم أن خالي وخالتي وأعمامي وأولاد عمومتي أطباء ناجحون في تخصصات مختلفة، بل أعضاء هيئة تدريس أيضا! كانت أمي ترى أن دراسة الطب مشقة وأن لا جدوى من إضاعة وقت البنات في دراسة الطب؛ فرَفضت الفكرة ومات الحلم. احتفظت بحبي للطب وللمعلومات الطبية واستمتعت بدراسة دبلومة ترجمة طبية. كان شغفي بالقراءات الطبية حافزا لاكتشاف سر عرجة ابني وشكواه من ألم شديد مستمر في الحوض لم أفهم معناه ولا سببه أو حتى مصداقيته. كان أحيانا يشير إلى منطقة

الحوض وتحديدا في الجهة اليمنى ويقول إن هناك ما يؤلمه كما لو كان سكينا مغروزا!

أريد قضيبا معدنيا أضرب به الألم المتمركز هنا!

كان تعبيرا غريبا وشكوى باتت متكررة، وعجزت عن فهم السبب، وهل كان عضويا أم نفسيا!

قررت الذهاب لطبيب عظام وعرض الأمر عليه. اخترت طبيبا عشوائيا وذهبنا إليه. وعندما شرحت له الشكوى طلب مني عرض ابني على طبيب عظام أطفال متخصص، وتفضل بإعطائي بيانات الطبيب الذي يرشحه لنا. عجبت من أمانته ونزاهته فقد أعاد لي ثمن الكشف لأنه ـ حسب قوله ـ لم يفعل لنا شيئا. كان حقا طبيبا يحترم رسالته الإنسانية، فقد أصر على أنه لم يعطني إجابة عن سؤالي؛ لذلك فهو لا يستحق هذه النقود! غادرت عيادته وأنا أدعو له بالتوفيق والبركة. كان موعد الطبيب الآخر بعد أسبوع وبالطبع لم أستطع الانتظار. ذهبت لطبيب عظام ثانٍ سمع الشكوى وفحص الولد وقطب

حاجبيه وسكت لبرهة من الوقت متأملا الصغير، ثم قال إن من الأفضل إجراء فحص بالرنين المغناطيسي، بالإضافة إلى الأشعة السينية العادية. قال لي إنه يراوده شك ما لكنه يستبعد الفكرة لأنها حالة نادرة جدا لن يقطع الشك باليقين فيها سوى الرنين المغناطيسي. ذهبت على الفور لإجراء الأشعة على الحوض، أما الرنين فكان بحجز مسبق فحجزت موعدا وانصرفت.

في اليوم التالي، استلمت نتيجة الأشعة وكعادتي قرأت التقرير الطبي وتفحصت الأشعة وتوغلت بين أروقة الإنترنت. أتاحت لي لغتي الإنجليزية القوية وعملي مترجمة وحصولي على دبلومة ترجمة طبية الحصول على كثير من المعلومات. لم يذكر التقرير تشخيصا للحالة بل ذكر أن هناك تآكلا في رأس عظمة مفصل الحوض الأيمن. انقبض قلبي وشعرت بغصة في حلقي. ما هذا الكلام المخيف؟ تآكل! لماذا تتآكل عظمة لم تبلغ عامها الثامن بعد؟ تذكرت كيف فحصته طبيبة

الأطفال في المستشفى في جلاسجو فور ولادته؛ وكيف أنها فحصت عظام الحوض وقامت بتحريكها في كل اتجاه وأكدت لي أن الطفل سليم تماما، ولم ألحظ مشكلة طوال الفترة السابقة من عمره. وكانت مهمتي المستحيلة هي معرفة سبب هذا التآكل وما هو تشخيص الحالة. لن أستطيع انتظار موعد الطبيب المتخصص بعد يومين. مهما بلغت معلوماتي وقدرتي على جمع المعلومات الطبية كنت عاجزةً وسط خضم المعلومات على معرفة كنه المرض أو الحالة، ولكن ظلت كلمة الطبيب ترن في أذني لتهديني إلى الإجابة «حالة نادرة». أمضيت ليلتي كلها على الإنترنت أتنقل من صفحة لأخرى ومن موضوع لآخر حتى وصلت للتشخيص بين تصديق وتكذيب! كانت صفات المرض الغريب النادر تنطبق تماما على ابني، ولكن هول ما قرأت جعلني أتمنى لو أنني مخطئة؛ لو أنني لا أتقن الإنجليزية؛ لو أنني لا أفهم ما أقرأ.. مرض (نخر العظام) أو (ليج كالفيه برثز)!

ومرت عليّ الساعات بطيئة مترقبة حتى أتى موعد طبيب عظام الأطفال المتخصص والثالث في القائمة. ذهبت إليه وأنا على شبه يقين بالحالة. كان أستاذا جامعيا وجراحا لعظام الأطفال. أعطيته الأشعة وسألته إن كان التشخيص الذي توصلت إليه صحيحا. تأمل الأشعة ثم نظر إليّ فباغته قائلة: «مرض برتز» أليس كذلك؟ لم يجبني فشعرت بالإحراج الشديد والتزمت الصمت. طلب الطبيب من «محمد» الاستلقاء على سرير الكشف وخلع سرواله والبقاء بالملابس الداخلية. قام بتحريك رجليه في اتجاهات متعددة ووضعها في وضع القرفصاء. بعد فحصه نظر إليّ وقال:

ـ نعم، هو «برتز» أو «مرض ليج كالفيه برتز». أنت طبيبة أليس كذلك؟

ـ لا، لست طبيبة؟

ـ كيف عرفت أنه (برتز) إذًا؟

ـ لقد قرأت وبحثت على الإنترنت.

ـ فقط؟

ـ نعم! يقول تقرير الأشعة إن هناك تآكلا في رأس العظمة، فماذا يكون السبب لطفل في السابعة إلا هذا المرض النادر؟!

وكان السؤال المنطقي التالي هو: ماذا بعد؟

ـ لا يوجد ما يمكننا فعله في الوقت الراهن.. أشعة جديدة بعد ثلاثة أشهر ولا توجد موانع للحركة حتى الآن!

ـ هل هناك دواء ما يمكن تناوله؟

ـ لا يوجد علاج لهذا المرض للأسف. لسبب غير معلوم حتى هذه اللحظة توقف الدم عن تغذية رأس عظمة الفخذ؛ مما تسبب في بداية تآكلها. لا نعلم متى سيعود الدم للتدفق بصورة طبيعية مرة أخرى. لا نملك سوى متابعة الحالة بالأشعة. لا نستطيع إعادة الدورة الدموية للمنطقة بأي شكل حاليا. طالما قرأت عنه فلا بد من أنك تعلمين الكثير، وأنهى

الزيارة.

كان هذا رد الطبيب، وبالنسبة إليّ كان ردا جافا مبتورا لا يحمل المعلومات الشافية. غادرت العيادة وقد تحولت إلى شخص آخر! يا الله! لقد كنت أعلم أن عدم سفري سيحمل بين طياته الكثير من المفاجآت، وها هي أولى المفاجآت ويا لها من مؤلمة! نظرت إلى ابني صغير الجسم والسن الذي بات ينتظر المجهول. لا أصدق أن هذا الطفل النشيط الذي لا يكف عن الحركة والجري قد ضرب في مقتل! لقد كانوا يسمونه (الرجل العنكبوت أو سبايدرمان)؛ لأنه كان يتسلق كل شيء! كان (توك توك) لأنه كان في كل مكان في نفس الوقت! حضر معي وسمع كلام الطبيب ولا بد من مناقشة الأمر معه. كان مضطربا وخائفا. لا يستوعب ما يسمعه ولا يفهم المصطلحات التي يستخدمها الطبيب، بل كل ما يفهمه أن هناك ألما شديدا في فخذه وأنه لا يستطيع الجري أو النط كعادته! وقررت أن أشركه من اليوم فصاعدا في كل ما يتعلق بالزائر الجديد

المسمى (برتز).

وفي المنزل عدت إلى الإنترنت لأقرأ بتمعن مرة أخرى عن هذا المرض الغريب. في واقع الأمر ليس مرضا بالمعنى المعروف فهو غير ناتج عن فيروس أو بكتيريا ولا ينتقل بالعدوى. يسمونه مرضا مجازا، لكنه حالة نادرة يتوقف فيها الدم ـ بدون سبب معلوم ـ عن تغذية رأس عظمة الفخذ مما يسبب تآكلها وانهيارها وهذا هو سبب العرج. (ليج كالفيه برتز) مرض طفولة أخذ اسمه من اسم الأطباء الذين اكتشفوه. يصيب طفلا إلى ثلاثة أطفال من بين ٩٠٠٠ إلى ١٢٠٠٠ طفل، أو طفلا من بين ٢٠٠٠٠ طفل وفقا للإحصائيات المتباينة. ويصيب الأطفال صغار الجسم كثيري الحركة والنشاط، كما أنه يصيب الأولاد أكثر من البنات! عواقبه وخيمة لأنه يسبب تشوها في رأس عظمة الفخذ؛ مما يؤدي إلى خشونة مفصل الحوض مستقبلا والحاجة لتغيير المفصل. في بعض الحالات النادرة يصيب عظمتي الحوض فيقعد الطفل تماما عن الحركة. ممنوع الجري!

ممنوع القفز! أفضل الرياضات هي السباحة وركوب الدراجات؛ لأنها تحافظ على ليونة المفصل دون وضع أي ضغط أو ثقل على العظمة. لا بد من النشاط المحدود؛ لأن قصور الدورة الدموية يؤثر على العضلات ويضعفها بدورها. ينتهي المرض مع البلوغ أي أن الفترة قد تمتد لسنوات وسنوات يتخللها الامتناع تماما عن الحركة واستخدام الكرسي المتحرك! من الممكن أن يسبب فرقا في طول الرجلين لاحقا بعد انتهاء دورة المرض؛ لما يسببه من تدمير في رأس العظمة.

تدفق سيل المعلومات المزعجة واحدا تلو الآخر كسيل جارف يغمرني بلا رحمة أو كوابل من الطلقات المميتة التي أصابتني في مقتل. ما الحل إذًا؟ الحل: عند الأطفال الصغار دون الخامسة غالبا ما يأتي المرض ويذهب دون ترك آثار خطيرة على العظمة؛ فالدم يعود بعد فترة لممارسة مهمته في تغذية العظمة وتعود العظمة للنمو من جديد وقليلا ما يحتاج هؤلاء الأطفال لعملية تغيير مفصل في

المستقبل! لكن مهلا هذا الأمر ينطبق على من هم دون الخامسة، لكن مشكلة ابني أن المرض بدأ وهو في السابعة والنصف من عمره ومن ثم فالعواقب ربما تكون غير محمودة. الحل: التدخل الجراحي العنيف! ما العمل إذًا؟ كيف يمكنني مساعدة الصغير؟ هل توجد وسيلة لإعادة دماء الحياة لعظمة الفخذ؟ هل سيحتاج لاستبدال مفصل الفخذ في المستقبل؟ كم مرة سيستبدله في حياته؟ هل هو مفصل واحد، أم أكثر من مفصل؟ ما أنواع المفاصل؟ كيف تتم عملية استبدال مفصل الحوض؟ قرأت كل شيء، وشاهدت كل شيء! رحماك يا الله!

أخذت أفكر في وسيلة لمساعدة الجسم على استعادة تدفق الدم وتغذية المنطقة المصابة. قرأت عن الأعشاب الصينية لكنها صفحات باللغة الصينية. ليتني أعرف اللغة الصينية! لكن الأعشاب ربما يكون لها ضرر آخر لا يمكن استخدامها بلا إرشاد. ماذا عن العلاج بالإبر الصينية؟ قرأت وبحثت. من يمكنه

المعالجة بالإبر الصينية هنا في مصر؟ عليَّ السفر للصين! لماذا لا أقوم باستشارة طبيب أوعية دموية؟ لماذا تذكر كل المواقع أن أطباء جراحة العظام هم وحدهم المنوط بهم علاج هذا المرض؟ أليست المشكلة في قصور الدورة الدموية؟ أين دور أطباء الأوعية الدموية؟ هل يمكن مداواته بالحجامة؟ الحجامة تنشط الدورة الدموية. دوامة من التساؤلات عصفت بي وأنا أتنقل من موقع لموقع ومن صفحة لصفحة. زادت الحيرة وزاد الغموض.

في الصباح التالي وبينما كان «محمد» يسقي الزرع في شرفة منزلنا كعادته كل يوم، شاهدت ورقة زرع قد ذبلت واصفرت أطرافها. كانت هذه الورقة هي ملهمتي لهذا الصباح.

- «محمد»! أريد أن أسألك سؤالا.

- نعم!

- هل تحب الزرع؟

ـ طبعا، فهو جميل. «يمنى» تحب الورد، وأنا أحب الزرع الأخضر.

ـ هل تذكر ما حدث للزرع عندما سافرنا وتركناه لبضعة أيام بدون ماء؟

ـ نعم، لقد ذبل.

ـ هل تعلم لماذا ذبل؟

ـ نعم؛ لأنه يتغذى على الماء، وعندما لم يجد الماء جفت الأوراق.

ـ وماذا حدث بعد أن عدنا من السفر وسقيناه من جديد؟

ـ عادت الأوراق خضراء مرة أخرى.

ـ هل تعلم أن هذا ما يحدث في رجلك الآن؟ لا يستطيع الدم الوصول إلى هذه المنطقة. هناك ما يمنعه ولا نعرف لماذا. لا يستطيع الدم الوصول وهو كالماء الذي يغذي العظام. هذا هو السبب في الألم.

- هل يتألم الزرع إذًا عندما نسافر ولا نسقيه؟

- ربما يتألم لا أعرف تماما. لكن عظمتك كورقة الزرع بلا ماء. أصيبت بالضعف والتلف، وربما يزداد الضعف أكثر في الأيام التالية، ثم سيعود الدم من السفر ويسقيها من جديد وستبدأ في النمو مرة أخرى!

تلجلج صوته بضحكة بين تكذيب وتصديق وقال:

- وهل سأستطيع وقتها الجري والقفز بدون ألم؟ هل سأعود للمشي بلا عرج؟

- إن شاء الله يا صغيري. لكن علينا الاعتناء بهذه العظمة قدر المستطاع لنحافظ عليها؛ حتى يعود الدم من السفر!

أعجبته الفكرة. حاولت تبسيط الأمر له قدر المستطاع. ليس رضيعا لا يعي شيئا مما يحدث حوله. هو في السابعة والطريق طويل، ويجب أن يساعدني في حل المشكلة؛ فهو جسده لا جسدي

وهو من يحركه لا أنا. عليه استيعاب الأمر وتوخي الحذر من الآن فصاعدا.

كنا في شهر إبريل وموعد عودة زوجي في شهر يولية مع موعد الأشعة الجديدة. وضعت خطة عمل خلال الأشهر الثلاثة القادمة تتضمن السباحة وركوب الدراجات فقط. عليّ استغلال فترة السماح هذه فلا أعرف ما سيئول إليه حال ابني بعدها. عليه اللعب والانطلاق قدر المستطاع قبل أن تجبره الظروف على السكون والخمول. سأتبع نصائح الصفحات الطبية التي قرأتها على الإنترنت.

توقفنا عن تدريب كرة السلة بعد أسبوعين فقط؛ لأن القفز يؤذي العظمة الهشة الضعيفة! اشتريت له دراجة جديدة وكان فرحا بها فهي الدراجة الأولى التي يحصل عليها؛ لذا عليه شكر (برثز) عليها!

لم أخبر زوجي بأي تفاصيل، فماذا هو فاعل لي في غربته وتفصلنا عنه بحار ومحيطات؟ يكفيه ما هو فيه من قلق فعليه إتمام مهمته الدراسية بنجاح

مهما حدث. كانت مهمتي من الآن فصاعدا هي دراسة وقراءة كل ما تقع عليه يدي من معلومات. كانت العمليات الجراحية المقترحة وفقا لما أجده متعددة وصعبة. تسبب إحدى العمليات قِصرا في الرجل المصابة، بينما العملية الأخرى تستلزم أخذ رقعة من عظام الحوض لاستخدامها في إنقاذ العظمة المصابة. كانت النتائج غير مضمونة وكانت كل الآراء اجتهادية؛ لأن المرض يختلف في شدته وأثره من طفل لآخر. لا يوجد منهج ثابت للتعامل مع هذا المرض، بل يجتهد كل جراحٍ وفقا لرؤيته الشخصية وتقييمه للحالة.

كنت أتفنن في البحث عبر محركات البحث؛ فتارة أكتب اسم المرض وتارة أكتب عبارة أخرى مرتبطة بالمرض لأحصل على مزيد من المعلومات والصفحات. درست المرض كما لو كنت أقوم ببحث مفصل، حتى المنشورات الطبية والأبحاث الجراحية المتخصصة قرأتها كلها بتمعن ودونت ملاحظاتي. وكلما قرأت ازداد غمي وهمي! إنها حالة

نادرة، وهذا ما يقلقني. ليست مما اعتاد الأطباء على معالجتها بشكل تلقائي. ابني الآن تمّ اختياره من بين ١٢٠٠٠ طفل على أقل تقدير، فلا أملك سوى التسليم بقضاء الله، لكن عليّ أن أبحث عن رفقاء لرحلتنا الغامضة في السنوات القادمة في الغرب.

ـ «لا بد أن هناك حلا ما في مكان ما!».

توصلت لمجموعة دعم ومساندة لمرض (برتز) في شبكة التواصل الاجتماعي (فيسبوك)، وبالرغم من أنهم في أستراليا ونيوزيلندا فإنهم قبلوا انضمامي لهم بصدر رحب.

ـ «أنا ممتنة لكم جدا وأعجز عن شكركم. فهذه هي الإنسانية في أبهى صورها. مهما فرقتنا القارات واللغات والأعراق نظل بشرا نتشارك في الهموم والأمراض والمشكلات الإنسانية».

كانت هذه الجمل هي الشكر الذي كتبته لهم في المجموعة ردا على قبول انضمامي لهم. لقد كانت المجموعة خير معين؛ حيث عرفت منهم الكثير من

المعلومات والحلول للمشكلات اليومية التي يمر بها الأطفال. كانوا آباء وأمهات لأطفال يعانون من هذا المرض، كما كان بعضهم مرضى سابقين تجاوزوا مرحلة الطفولة؛ منهم من استبدل مفصل الحوض ومنهم من لم يحتج لمفصل صناعي جديد. كانت القصص كثيرة ومتنوعة بعضها يحمل أملا مشرقا والبعض الآخر مؤلم. كنت أفرح لفرحهم، وأحزن عندما أرى طفلا منع من الحركة وعليه أن يستخدم الكرسي المتحرك حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا. هناك آخرون قد علقت أرجلهم في السقف في وضع يخفف من آلامهم ويقلل من الضغط على العظمة. هل سيكون مصير ابني مثلهم؟ هل سيستخدم كرسيا متحركا؟ هل سيستعين بعكازين لفترة من الزمن؟ هل سأراه يوما وقد علقت قدماه في السقف؟ انقبض قلبي عندما رأيت من أصيب في المفصلين وبات عاجزا عن الحركة تماما. كان ابني في مرحلة الترقب وطلبت منهم المشورة فجادوا عليّ بكل ما يعرفونه من خبرات حياتية يومية لا

يتسع وقت الأطباء للخوض فيها.

سمعت توصياتهم وشاركت معهم في النقاش والحديث. ما أجمل أن تملك لغةً قويةً تفتح بها الآفاق وتلج بها في كل العوالم. لقد مكنتني لغتي الإنجليزية التي أتقنها بطلاقة من قراءة المراجع الطبية، ومن التواصل مع من هم في مثل مشكلتي. الحمد لله، إنها المنحة وسط المحنة! لقد حزنت لضياع فرصة السفر، وهأنذا أعرف السبب. لو كان «محمد» قد أصيب ونحن هناك، فلن نكتشف ربما الأمر، ولن تتسنى لنا متابعته. لعل اكتشاف الأمر مبكرا يصب في مصلحته.

بدأت أتقبل الأمر المجهول شيئا فشيئا بفضل مجموعة الدعم. أشعر بأنني لست وحيدة في هذا المأزق، وأن هناك من ألجأ إليهم للنصح وسماع تجربتهم في بلاد متفوقة طبيا وعلميا. كان أغلب الأطفال يخضعون للتدخل الجراحي لا باعتبارها وسيلة علاج للمرض، بل لحماية عظمة الفخذ قدر

المستطاع حتى تمر فترة انقطاع الدم بسلام وعودة التدفق الدموي، وإعادة النمو بشكل دائري لا يسبب خشونة في المفصل. كانت حماية العظمة المتآكلة الشغل الشاغل للجميع، ويوما بعد يوم كنت أتابع قصة هذا الولد وتلك البنت قبل وبعد العملية والتوصيات والإجراءات. كنت ملمة تماما بالأمر، ولكن فكرة التدخل الجراحي كانت مرفوضة تماما بالنسبة إليّ. كيف أسلم صغيري لسكين جراح كائن من كان؟! إنها عملية في العظام وليست عملية اللحمية التي أجراها عندما كان رضيعا لم يبلغ عامه الثاني بعد! كانت كل العمليات الجراحية ترتكز في نوعين أحلاهما مرًّا!

وكنت أتعلق بأي أمل يكتبه شخص من المجموعة أنه لم يقم بإجراء أي عملية ولم يحتج لتغيير المفصل لاحقا. ما كان يؤرقني هو بعض الراشدين الذين أصيبوا بالمرض في طفولتهم، لكنهم أكدوا أنهم برغم خضوعهم لإجراء عمليات في مفصل الفخذ في صغرهم فإنها فشلت

واحتاجوا لتغيير المفصل في الثلاثين والأربعين من العمر! ما جدوى العملية إذًا؟ لمَ العذاب؟ كان هذا تساؤلي الدائم! وكم كنت أشعر بالهلع عندما أجد أن بعضهم قد أصيب بالمرض في مفصلي الحوض وأصبح قعيدا لفترة طويلة من الوقت.

هداني تفكيري للاستعانة بـ«كريستين» صديقتي الأسكتلندية، كانت قد أصيبت ابنتها بكسر في قدمها وخضعت لعملية جراحية دقيقة. بعثت لكريستين بمشكلتي واستشرتها إن كانت تستطيع مساعدتي في استشارة طبيب بريطاني، وسألتها عن إمكانية إجراء العملية هناك إذا استدعى الأمر. لقد ولدت «محمد» هناك في أسكتلندا وحظيت بعناية فائقة غير متحيزة لجنس ولا لدين.

كنت أعلم أن عمليات العظام في مصر باهظة التكاليف، فلماذا لا أجريها هناك؟ فعلى الأقل سيكونون أكثر خبرة مع مرض نادر كهذا، وسيحظى برعاية طبية ممتازة بعد العملية في فترة النقاهة

وهي الأهم. تفاعلت معي «كريستين» ولم تتوانَ عن مساعدتي في البحث عن طبيب أو مشفى متخصص في عظام الأطفال. طمأنتني «كريستين» وساعدتني بل تعدى بها الأمر أن عرضت عليَّ القدوم لجلاسجو والمكوث في بيتها لتخفيف النفقات. ولم ولن أنسى عرضها الكريم عندما أخبرتها بأنني إن قررت الذهاب لأسكتلندا فعليَّ اصطحاب «يوسف» الصغير ذي الأعوام الأربعة. عرضت عليَّ «كريستين» رعايته وتوفير جليسة للأطفال مسلمة وتتكلم العربية حتى لا يشعر بالخوف في غيابي. عجزت عن شكرها فنعم الصديقة هي! فلقد تفاعلت معي عبر الأثير ولم يقف اختلاف الدين ولا العرق حائلا بين صداقةٍ خالصةٍ. وضعت كل ما قالته في الحسبان ريثما يتبين الأمر في موعد الأشعة الجديدة.

يوما بعد يوم كنت أرى ابني الصغير يتحول من طفلٍ نشيطٍ مبتهجٍ مفعمٍ بالحيوية والنشاط إلى طفلٍ ضعيفٍ يتعب بسرعة من أقل مجهود، ولا

يستطيع الجري ولا القفز.

كانت الآلام شديدة بسبب تفتت العظام، وكان ابني يتحملها في جلادةٍ بعيونٍ دامعةٍ في صمت. كانت المسكنات تفلح أحيانا في تخفيف ما به، وتفشل أحيانا أخرى. لم استشر طبيبا آخر في هذا الوقت لتوافق كلام الطبيب الأخير مع ما قرأته وما يفعله الآخرون في البلاد الأخرى. كانت السباحة ممتعةً بالنسبة إليه، كما أحب دراجته الجديدة، وكان الأمر يسير على ما يرام إلى حد كبير بعد أخذ الاحتياطات اللازمة.

٤

فقدان الأثـر

وفي قمة همي مرضت خالتي الحبيبة «آمال» مصدر قوتي وثباتي. داهمها السرطان الذي انتصرت عليه منذ أربع سنوات، لكنه عاد الآن وبشراسة! دخلت المستشفى وسط قلق كل أفراد العائلة؛ فهي كانت أما للجميع بعطائها وصدرها الذي اتسع لكل المشكلات والهموم. لم تضن على أحدٍ بمشورة أو بمساعدة كبرت أو صغرت. اغتم الجميع لما أصابها وتوافد على غرفتها زائرون من كل صنوف البشر، بدءا بمن تساعدها في أعمال المنزل وانتهاء بزملائها في هيئة التدريس بالجامعة. كان الوضع خطيرا هذه المرة. لم يكف عقلي عن تذكر رحلتها مع المرض الذي بدأ منذ أربع سنوات. كان الطريق من منزلي إلى هناك يستغرق قرابة الساعتين أو أقل؛ حيث كان كوبري ٦ أكتوبر الذي يفصل بيننا مزدحما للغاية في هذا الوقت من اليوم. أتذكر جيدا عندما أخبرها الأطباء بأن سرطان المعدة الذي أصابها من

الأنواع النادرة، وأن فرص النجاة منه تكاد تكون معدومة. زرتها في هذا اليوم وكانت تتعامل مع الأمر ومع ما قاله الأطباء بهدوءٍ شديد. لم تجزع ولم تنهزْ. قررت الذهاب لاستشارة جراح أورام شهير في لندن. سافرت إلى لندن وسط دعواتنا المخلصة، وهناك وببرودٍ شديد أخبرها الطبيب الإنجليزي بأن لديها ستة أشهر فقط من العمر. أخبرها بإمكانية إجراء جراحة لاستئصال جزء كبير جدا من المعدة والمريء، لكن فرص النجاح ضعيفة.

أصرت خالتي ـ طبيبة التخدير ـ على الأخذ بالأسباب، وكانت على يقين بأن الله هو الشافي، وأن كلام الأطباء ما هو إلا اجتهاد وفق علمهم. أجرت العملية هناك في لندن بعيدا عن العائلة، ولم يستطع اللحاق بها إلا خالتي الأخرى وابن لها. وتمَّ الأمر بنجاح وتبعه عدد هائل من جلسات العلاج الكيماوي التي بدأتها في مصر بصبرٍ واحتساب. شاهدناها وقد فقدت شعرها ووزنها. كان العلاج قاسيا لكنها تحملته بصبرٍ وقوة أتعجب لهما. كان

اليقين في رحمة الله وفي قدرته هو وقودها الذي لا ينضب. وبعد الانتهاء من الجلسات والعلاج المؤلم انتصرت على المرض. تعجب الطبيب مما حدث، لكنه أعلن لها بنفس الهدوء أنها أصبحت الآن حرة لتمارس حياتها بشكل معتاد على أن تعاود الفحص الدوري. احتفل الجميع بشفائها وبقوتها. كانت صلبة بيقينها بالله وبحسن ظنها به. أتذكر كيف أن معدتها أصبحت صغيرة الحجم جدا لدرجة أنها لا تستطيع الأكل إلا إذا كان أكلا سائلا أو لينا. لم يعد هناك حيز كافٍ لتتناول ما تشتهيه من طعام. كانت كلما دعاها أحدهم إلى مأدبة طعام في أي مناسبة نظرت إلى صنوف الطعام الشهي وابتسمت قائلة: موعدنا في الجنة إن شاء الله!

كان أفضل ما يمكنني إعداده لها هو طبق (كريم كراميل). كان شهيا لينا ومتخما بالعناصر الغذائية اللازمة من البيض والحليب. كانت مشكلتي الوحيدة أنها تسكن بعيدا عني فلم يكن من السهل زيارتها يوميا، بل كانت الزيارة أسبوعية. استمتعنا

بصحبتها وبحياتها بيننا أربعة أعوام لا ستة أشهر كما أخبرها الطبيب. والآن عاد المرض وخيم الوجوم على الجميع. هل ستنتصر هذه المرة؟ لقد انتشر بشراسة وفقدت الكثير من وزنها، فكيف ستقاومه هذه المرة؟ استجمعت شجاعتي ودلفت إلى حجرتها. كانت شاحبة من أثر النزيف الذي أصابها لكن الابتسامة لازمتها. داعبتني محاولة التخفيف عنها وعني.

- ما هي أخبارك مع «محمد»؟ ماذا قال لك الطبيب؟

كانت طبيبة تخدير أطفال، ولكنها مع ذلك لم تمر عليها خلال عملها في غرف العمليات حالات (برتز) مطلقا، لم تسمع بهذه الحالة النادرة من قبل، أخبرتها بكل ما أحمله من أخبار.

أمر المؤمن كله خير. اصبري وتعاملي مع الموقف بهدوء ويقين. (اللهم ارزقنا من اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا).

كانت تتألم من سرطان المعدة الذي بعد استئصالها امتد إلى بقية الجسم بضراوة، ولكنها كانت الشمس التي تمنح العائلة كلها الدفء والحنان والصلابة. تعلمنا منها الصبر عند الشدائد والاستمتاع بالحياة واليقين بالله وفن إسعاد الآخرين. كنت أتألم لرؤيتها تعاني ولا نملك لها سوى الدعاء، وكانت تحاول أن تبدو متماسكة وتستقبل زياراتنا بكل حب وود. بدأت أدرك يوما بعد يوم أن عدم سفري لكندا سيحمل لي الكثير من المفاجآت التي تبدو حتى الآن أنها غير سارة بالمرة!

كنت أذهب لها يوما بعد يوم وكانت حالتها تزداد سوءا، وبدأ النزيف ونقل الدم بلا جدوى. كنت عاجزة أمام صبرها ويقينها بالله وابتسامتها التي لا تفارقها برغم شدة الألم ورفقها بالممرضات. وكنت أعود للبيت لأجد ابنا مريضا وأما مريضة، وكلاهما في حاجة لمساعدتي! كنت محاطة بالقلق من كل اتجاه. كانت الأيام كئيبة خانقة.

ازداد النزيف وطلب الأطباء من يتبرع بالدم لها. وددت لو استطعت لكن إصابة قريبة بالالتهاب الكبدي منعتني من التبرع لها. وقرر الأطباء أن لا مفر من إجراء جراحة لكيّ الأمعاء التي تنزف بلا هوادة. كان جسدها نحيلا وهزيلا، وكانت الجراحة مخاطرةً لكن لا بديل. تمت الجراحة، لكن دخلت خالتي في غيبوبة تامة. خرجت من غرفة العمليات إلى غرفة العناية المركزة! استمرت الغيبوبة يوما تلو آخر ووضعت على أجهزة التنفس الصناعي. وبعد أسبوع استدعى الطبيب خالي وقال له إنها ماتت إكلينيكيا. رفض الجميع الفكرة وتناوبنا على زيارتها في أوقات الزيارة ولو للحظات نقرأ لها القرآن الكريم، وندعو الله أن يخفف عنها ما هي فيه. وفي يوم سعيد اتصلت بي «عائشة» ابنة خالتي:

ـ لقد أفاقت من غيبوبتها! أفاقت من الغيبوبة صدقيني!

ـ حقا؟ كيف؟ ومتى؟

ـ منذ قليل. لقد فاقت من الغيبوبة ونظرت إلينا وابتسمت لنا.

ـ الحمد لله! الحمد لله! أنا قادمة على الفور.

كنت في مزيج من الفرحة المشوبة بالذهول والرهبة. كيف قالوا إنها ماتت إكلينيكيا؟ ماذا لو قرروا نزع أجهزة التنفس الصناعي عنها؟ كيف تسول لهم أنفسهم فعل ذلك في الغرب؟ من نحن لنتحكم في بقاء روح أو القضاء عليها؟ للروح رب خالق تأتمر بأمره. تبا لهذا الإنسان ما أطغاه!

لا أعلم كيف ارتديت ملابسي، وكيف قدت سيارتي، وكيف طرت بها من القاهرة الجديدة وحتى المهندسين. كل ما أتذكره هو قفزي على درجات سلم المستشفى حتى أصل إليها. وصلت لاهثة للطابق الذي به غرف الرعاية المركزة ولم يكن يسمح إلا بشخص واحد فقط. كانت العائلة كلها هناك تتوافد لرؤيتها.

لو كنت قد جئت منذ ساعة لكنت شاهدت سيلا من ممرضات الطابق الذي كانت به غرفتها في الأعلى. جاءوا يركضون فرحين بالخبر. أتوا ليروها. لم أرَ حبا من ممرض لمريضه بهذا الشكل. إنه حب واهتمام خالص لا يشوبه نفع مادي ولا وجاهة اجتماعية. لقد أحسنت إليهم في أشد الأيام صعوبة وبادلوها بالإحسان إحسانا. كانت تتألم في صمت ولم تصرخ في وجه إحداهن يوما. كانت تبتسم وتشكرهن كما لو كن يقمن بعمل خارج نطاق مسئوليتهن.

جاء دوري وبين دموع فرح ورهبة دخلت لرؤيتها. ابتسمت لرؤيتي، لكنها لم تتمكن من الحديث بسبب الأنابيب المثبتة في فمها وأنفها. نظرت لي نظرة تحمل كل معاني الشوق والفرح واليقين. نعم، إنه اليقين يا خالتي أعلم هذا ولن أنساه ما حييت!

وفي اليوم التالي استقرت حالتها وغادرت غرفة

الرعاية المركزة ونقلها الأطباء لغرفة عادية. ولاحظت «عائشة» أنها تريد إخبارها بشيء ما. أعطتها قلما وورقة لكنها عجزت عن الكتابة. كانت رغبتها في الحديث ملحة لكن لا يمكن نزع أجهزة التنفس. فكرت «عائشة» في حل وهداها تفكيرها للوح به حروف الهجاء. وظلت بجوارها يوما كاملا في محاولة لفك شفرات ما ترغب في قوله. كانت «عائشة» تشير إلى الحرف وخالتي تومئ برأسها إيجابا أو تعقد حاجبيها رفضا. وبعد عناء استطاعت أن تفهم ما تريد إخبارنا به؛ وهو أسماء بعض المحتاجين الذين تساعدهم ماديا لتخطي مصاعب الحياة. واستطاعت أن تحصل على قائمة بأسماء المحتاجين، وبالمبلغ الذي اعتادت مساعدتهم به حتى يتسنى لنا استكمال الأمر من بعدها.

ـ «كم هي رائعة هذه السيدة!».

وبعد ثلاثة أيام، ذهبت لزيارتها وعلي غير المعتاد كنت أنا و«آية» أختي وابنتا خالتي الأخرى

«عائشة» و«مريم» فقط لا غير. كانت زيارة هادئة ولم يكن هناك غيرنا. كانت خالتي في سبات عميق ولم تشعر بوصولنا. طبعت قبلة حانية على يدها وتأهبت لصلاة المغرب. صليت بجوارها ودعوت الله أن يخفف ما بها من ألم. كان من المؤلم رؤيتها في هذه الحالة. وفي أثناء صلاتي سمعت صراخ «مريم» و«عائشة». لم أفهم، بل ربما كذبت سمعي وتوقعاتي. أنهيت صلاتي وكان الجهاز يعلن توقف النبض وعودة الروح إلى بارئها. وبعد شهر من الآلام المبرحة ومحاولات نقل الدم المتواصلة ومحاولة لكيّ الأمعاء لتتوقف عن النزيف، غربت الشمس من حياتي وانتقلت خالتي الحبيبة التي كانت تشد دوما من أزري إلى رحمة الله. بكاها الجميع وبكتها الممرضات اللائي عكفن على خدمتها لشهرين متواصلين في أصعب الأيام ولم يجدن منها سوى كلمات الشكر وابتسامة الرضا.

وبالرغم من تمزق الفؤاد لرؤيتها وهي تتعذب من الألم وما يعنيه الموت من راحة، فإن للفراق لوعته.

وسبحان الله؛ عندما أفكر في الأمر أجد أن مثل هذه الشخصية التي يحبها الجميع والتي كانت تتفنن في إدخال السرور والفرح على قلوب كل من يعرفها، حتى وهي في أحلك الظروف وأشد العذاب، لم تكن لتذهب فجأة وبدون مقدمات. كان لا بد من أن يهيأ الجميع لفراقها تدريجيا حتى يتقبلوا غيابها للأبد. كان الجميع يتمنى لو أنها ترتاح من آلامها، حتى ولو كان هذا يعني الموت! ماتت خالتي وأنا بجوارها.. أنا وأختي وابنتا خالتي الأخرى فقط لا غير، برغم أن غرفتها كانت دوما مكتظة بالأحبة والأهل، لكن شاء الله العلي القدير أن نكون نحن الأربعة فقط بجوارها. رحلت في سلام وهدوء وابتسامة رضا تزين وجهها. ابتسامة لم ولن أنساها ما حييت. سمعنا كثيرا عن الموتى الذين يبتسمون عند موتهم ولم نكن نصدق أو على الأقل نظن أن هذا من خيال الأهل ليخففوا من وطأة الصدمة على فراق أحبتهم، لكنني رأيت هذه الابتسامة رأي العين. ماذا رأيتِ يا خالتي من نعيم الله لتبتسمي هكذا بعد طول

عذاب؟ إنه الرضا.. إنها السعادة.. (روح وريحان وربٌّ راضٍ غير غضبان) هذا ما خطر ببالي وقتها، فقدت الأثر الذي كنت أتتبعه كي لا أضل طريقي.. فقدت السند والحكمة!

وبدأت حياة خاوية أخرى بعد فقد خالتي. زوجي ما زال في سفره منهمكا في دراسته فلم أخبره بمرض «محمد» حتى الآن. لا جدوى من تعكير مزاجه عن بعد فلا يملك لي نفعا ولا ضرا. وابني ما زال يعاني، وأمي ما زالت تتدهور حالتها الصحية والنفسية. كنت الآن وحيدة فحتى خالتي الأخرى في سفر بعيد. كنت أمارس حياتي بشكل طبيعي ظاهريا أمام الجميع، فلم أكن أملك سوى ذلك! ذبت بين مشكلات الأبناء المراهقين وأيامهم وبين الصغير ذي الأعوام الأربعة الذي يحتاج للرعاية، وبين طفل يفقد نشاطه وبريق عينيه يوما بعد يوم مع اقتراب مهلة الطبيب على النفاد.

٥

خطوة نحو الهاوية

واقترب موعد عودة زوجي، واقترب معه موعد زيارة الطبيب. مرت ثلاثة أشهر. عاد زوجي من السفر وأخبرته بالأمر وذهبنا للطبيب. قابلنا الطبيب رقم (٣) بلامبالاة وهو يتصفح هاتفه المحمول بغير اكتراث؛ مما مثّل بداية غير مشجعة بالمرة. ألقى نظرة سريعة على الأشعة وقال إن التدخل الجراحي أمر حتمي في أسرع وقت ممكن، إن لم يكن فورا فهو في الصباح الباكر على أقل تقدير! كانت الجراحة التي يقترحها هي Femoral Osteotomy؛ أي كسر عظمة الفخذ اليمنى المصابة وثنيها للداخل في تجويف (الحُق) وتثبيتها بشرائح ومسامير، حتى يتم احتواء رأس العظمة داخل تجويف الحوض للمحافظة على شكلها الدائري، وتكوين قالب مجوف تنمو فيه لاحقا. أخبرنا أنه سيضعه في بنطلون من الجبس لمدة شهرين ينام فيهما في السرير بلا حراك! كان يتحدث برتابة وبرود، وعندما

سألته عن المستشفيات التي يعمل بها لم أجد بينها ما أثق فيه، وتعجب من كلامي عندما سألته عن التعقيم والرعاية.

لم يقنعني هذا الطبيب ولم أتحمس للمتابعة معه. بنطلون من الجبس لمدة شهرين لطفل مثل «محمد»! لا وألف لا! كان المشهد مؤلما لمجرد تخيله، فكيف سيكون الحال واقعيا؟ غادرنا عيادة الطبيب صامتين واجمين. وبدأ ناقوس الخطر يدق في عقلي بشدة. لقد رشحه لي الطبيب الأول وأشاد بعلمه وخبرته. لكن هناك حاجزا نفسيا يمنعني من الانصياع لأوامره الفورية هذه! لا بد من البحث عن آراء أخرى لأطباء ثقة، ولكن من هم، وأين هم؟ وأنّى لي الوصول إليهم من بين آلاف الأطباء في مصر؟ وكعادتي عندما يتعلق الأمر بالاستشارات الطبية؛ اتصلت بـ«شريف» ابن عمي فهو بمثابة أخي الكبير، وهو طبيب وعضو هيئة تدريس بجامعة عين شمس. يمكنني التفكير معه بصوت عالٍ، رويت له قصة المرض وسألته عن الطبيب. كان يراه أحيانا

بحكم موقع عملهما المشترك في جامعة عين شمس، لكنه لم يكن يعلم أي شيء عن كفاءته، فهو طبيب أمراض نساء وولادة بينما مشكلة «محمد» من تخصص عظام الأطفال. أخبرني عن طبيب آخر في التخصص المطلوب ممن يُشهد لهم بالكفاءة والخبرة. كان الطبيب الذي رشحه قد عمل في بريطانيا وعاد للتو من هناك؛ لذا فخبرته ستكون محل ثقة.

كان لا بد من الحجز أولا بالتلفون، ثم الذهاب للعيادة في السادسة للحجز ودفع ثمن الكشف كاملا، ثم انتظار الطبيب الذي يأتي ما بين السابعة والثامنة مساء، على حد قول السكرتيرا! كان يوما مزدحما ومكتظا بالمرضى. توافد الكثير من الأطفال مع أهاليهم ولم يكن المكان ليتسع للجميع فاضطر البعض للنزول للانتظار في الشارع وعلى الرصيف. كان المكان غير مريح بالمرة؛ فهناك عدد قليل جدا من المقاعد القديمة المتهالكة برغم اتساع المكان للمزيد من المقاعد، وشعرت بأنانية الطبيب. نعم،

فهو لم يفكر في احتياجات الأطفال المرضى الذين لا تقوى عظامهم الواهنة على حملهم وعجزهم عن الوقوف. كل ما فكر فيه هو أنهم سيأتونه مرغمين وسينتظرونه مرغمين، وسيدفعون الكشف دون اعتراض لأنهم في حاجة إليه. لماذا لا يوفر المقاعد الكافية؟ لماذا لا يرحم الصغار الذين لا تقوى عظامهم الضعيفة على حملهم؟ إنه طبيب أطفال وجراح عظام أطفال؛ أي أن الكثير منهم سيأتون وهم في أضعف حالاتهم أو بعد خضوعهم للجراحة والرغبة في المتابعة. ماذا سيضيره إن التمس راحة مرضاه؟

شحنتني أفكاري بطاقة غضب ورفض للطبيب قبل أن أراه. لسبب ما فقد مصداقيته الإنسانية في نظري، وامتلأت برفض داخلي له قبل أن أتحدث إليه. أتى الطبيب متأخرا بعد أن بلغ مني الغضب مبلغه نتيجة الانتظار اللاآدمي، وعجز «محمد» عن الوقوف فجلس في السيارة، بينما جلس العديد من المرضى على الرصيف في الشارع. شعرت بالمهانة

لسبب أو لآخر ليس لي وحدي فلقد قضيت وقت الانتظار وهو ثلاث ساعات في السيارة، لكن للآخرين الذين افترشوا الأرض بأطفال تعجز عن المشي أو الوقوف أساسا فهم المرضى لا أهلهم.

أخيرا حان دورنا. فحص الطبيب رقم (٤) «محمد» جيدا واطلع على الأشعة وتناقش معنا في المرض بكل استفاضة، عرض علينا كل الاختيارات المتاحة وأجاب عن كل تساؤلاتنا.

كان الإجراء الجراحي الذي يفضله هو ما قاله الطبيب السابق رقم (٣)، وعندما أخبرته بتخوفي من عدم استجابة الجسم واستعدال الطول الذي فقده بعد كسر العظمة وفقدان بعض الطول مما يسبب العرج، لم يكن الأمر مقلقا بالنسبة إليه. لم ينسَ أن يخبرنا بأن «محمد» سيمشي مستعينا بعكازين لمدة ٦ أو ٨ أسابيع. وعندما سألته عن بنطلون الجبس الذي أخبرنا عنه الطبيب الثالث، رفض فكرة استخدامه لأنه غير عملي لطفل في

مثل سنه. كان منطقيا وعمليا في تفكيره. لم يخلُ الأمر للمرة الثانية من تعليق الطبيب على معلوماتي، واندهاشه عندما علم أنني لست طبيبة ولم أدرس الطب إلا من خلال دبلومة ترجمة طبية.

تدخل زوجي بسؤال للطبيب: عفوا سيدي! لديّ سؤال: ماذا لو تركنا الوضع على ما هو عليه ولم نتدخل مطلقا بأي إجراء جراحي؟

ـ في هذه الحالة ستكون النتائج في أمر الغيب. ربما مرَّ الأمر بأقل الخسائر، وربما تسبب في عاهة وعرج دائمين. ربما تعافت العظمة مستقبلا، وربما أحتاج لتغيير مفصل الحوض يوما ما.

كانت الإجابات مبهمة متضاربة تحمل إيجابا وسلبا في آن واحد!

هذا هو الغريب في مرض (برثز) حيث النتائج لا يمكن التنبؤ بها، والحالة تختلف من شخص لآخر، وكل ما يستطيع الطبيب فعله هو الاجتهاد لتدارك الأمر فقط لا غير.

ختم الطبيب الزيارة بهذه الكلمات وحملناها وانصرفنا. كان كلام الطبيب مقنعا ولا غبار عليه برغم المآخذ الإنسانية التي أخذتها عليه فيما يتعلق براحة مرضاه. لكنني كنت أنا المشكلة. ما زلت أرفض هذه العملية وأرفض النتائج المترتبة عليها؛ حيث ستصبح الرجل اليمنى أقصر من اليسرى لمدة سنتين على الأقل ريثما يبدأ الجسم في تدارك الوضع وتعويض الفرق في الطول. ولماذا نكسر العظمة ونثبتها بالمسامير والشرائح لمدة عام كامل، ثم نتدخل جراحيا مرة أخرى لنزع كل هذا؟ لماذا كل هذا العناء؟ لا بد من البحث عن المزيد من الآراء الطبية فلديّ رأيان يميلان في نفس الاتجاه.

كانت هذه الجراحة التي تسمى Femoral Osteotomy هي الأكثر شيوعا بين كل أعضاء مجموعة الدعم التي انضممت إليها على الفيسبوك، لكن الأمر مختلف عندهم تماما. كانوا يحصلون على عناية فائقة في فترة ما بعد الجراحة؛ حيث يمكث

الطفل المريض في المستشفى لأكثر من أسبوع؛ حتى يتأقلم الجميع على الوضع الجديد قبل العودة للمنزل، ثم في المنزل تأتي الممرضة المسئولة لتفقد المريض كل يوم وتنظيف جروحه والتأكد من أن كل شيء على ما يرام.

لقد ولدت «محمد» في (أسكتلندا) وأعي تماما حجم الرعاية الصحية التي يحصل عليها الطفل والأهل في الخارج. لقد ظلت الممرضة المسئولة عني أنا وطفلي الجديد تأتي يوميا إلى المنزل لتتأكد من أنني أرعاه بشكل جيد، وأن جرح الولادة القيصرية لا يؤلمني، وأن كل شيء على ما يرام! كان طفلي الثالث وليس الأول؛ أي أنني ربما تفوق خبرتي الشخصية مع الأطفال خبرتها هي شخصيا لكن كانت هذه هي الرعاية وهذا هو النظام! فكنت عندما أقارن بين العالم الآخر وبين العالم الذي أعيش فيه أرفض وبشدة وضع طفلي تحت مشرط الطبيب وكسر عظام سليمة لمجرد تخوف من عواقب مستقبلية!

ما الحل إذًا؟ الوقت يداهمنا ونحن في إجازة نهاية العام. أجمع طبيبان على ضرورة التدخل الجراحي في أسرع وقت وبنفس الطريقة، فماذا أنا فاعلة؟ ما زلت غير راضية برغم أن هذا ما تقوله الكتب الطبية وهذا هو الحل المعروض. سأبحث عن المزيد من الآراء. اتصلت بالدكتورة «رانية» صديقتي طبيبة تخدير الأطفال؛ لعلي أجد عندها رأيا مختلفا. استشارت زملاءها وأشارت عليَّ بطبيب خامس. كان الطبيب الجديد عضو هيئة تدريس بالجامعة أيضا لكنه ليس متخصصا في الأطفال. أحتاج لأن أفكر بصوت عالٍ مع من يفهم الحالة. لا بد أنه درسها ويدرّسها في نهاية الأمر. ذهبت له وقال لي:

ـ انسي الأمر يا سيدتي! تجاهلي الموقف كأن لم يكن! لقد كنتِ بالوعي الكافي والذكاء اللذين مكناكِ من اكتشاف المشكلة، لكن أمهات كثيرات كنَّ سيتجاهلن الأمر ويكتفين بإعطاء المسكنات ولن

تخطر ببالهن قصة الأشعة! يبقى الوضع على ما هو عليه. لماذا نعرض الطفل لكل هذا العذاب خوفا من فساد المفصل وتغييره في المستقبل؟! ربما حمل المستقبل له حلا آخر لم نتوصل إليه بعد. نصيحتي هي وضع فرشة في الرجل اليسرى السليمة حتى ترتفع عن اليمنى المصابة؛ مما يشكل ميلا طبيعيا للحوض ليحتوي العظمة المصابة. ولنعاود الكشف والأشعة بعد شهرين. كان يتحدث بثقة وكنت أنصت له في وجوم بين رغبة جارفة في الامتثال لأمره بنسيان الموضوع كأن لم يكن، وبين رفض لتجاهل العظمة التي تتفتت كل يوم! كان كلامه صادما مفرحا يتماشى مع رغبتي الدفينة بعدم إراقة الدماء والدخول لغرفة العمليات! لم يكن جراح عظام أطفال كالآخرين، لكنه بدا واثقا من كلامه. قررنا الأخذ بهذا الرأي مؤقتا برغم أنه واحد ضد رأيين. رجح زوجي تقبل هذا الرأي ونسيان الأمر، لكنني كنت غير مطمئنة. ما أسهل تجاهل الأمر وممارسة حياتي بصورة عادية مرة أخرى وإغلاق ملفات القلق

والحيرة، لكن هذا ليس حلا! لست ممن يدفنون رءوسهم في الرمال ويتبعون سياسة التجاهل. ظل الأمر مقلقا ومحيرا بالنسبة إليّ.

استأنفت استشارة من استطعت من صديقات. بعد عدة أسابيع اقترحت عليّ «نهى» استشارة جراح عظام أطفال شهير. كان قد مرَّ شهر كامل منذ آخر زيارة للطبيب رقم ٥. الوقت يمر مما يعني زيادة انقطاع الدم عن تغذية العظمة والمزيد من التآكل والضعف. كان القرار صعبا يؤرق يومي ومضجعي. كانت الاستخارة لا تفارق صلواتي المفروضة. بعد كل صلاة وفي جوف الليل: «اللهم دبر لي فإني لا أحسن التدبير. اللهم خر لي واختر لي». بدأ نشاط «محمد» يقل. كان المشي يتعبه ولم يكن يتألم كما في السابق، لكنه لم يكن مرتاحا في ممارسة حياته اليومية. أصبح السلّم مشكلة يومية. نسكن بالطابق الثالث ومع كل يوم تزداد صعوبة السلم، وأحيانا كان عليّ حمله للأعلى. أصبح مجرد ارتداء الجوارب أمرا شاقا لأنه يعجز عن رفع رجله اليمنى، كنت

أساعده على ارتداء جوربه الأيمن، وكان مجرد الذهاب لأي مكان يتطلب المشي أمرا عليّ التفكير فيه مليا قبل القيام به. لم تعد كل الأماكن متاحة للخروج، بل تمَّ استبعاد الكثير منها بسبب وجود سلالم أو وجود مسافات طويلة من المشي.

كانت عيادة الطبيب السادس في الجيزة أي في محافظة أخرى حتى وإن أذاب العمران المسافات البينية بين المحافظات. شددنا الرحال في الثالثة عصرا ووصلنا عيادة الطبيب في الخامسة عصرا. كان الحجز بأسبقية الحضور، وكان الناس يأتون لتسجيل الاسم ودفع الرسوم ثم المغادرة والعودة لاحقا عندما يأتي الطبيب في السابعة. تذكرت الطبيب الآخر الذي اتبع نفس الأسلوب وشعرت بالغضب من هذا الأسلوب في التعامل مع المرضى وذويهم. المريض شخص به علة وربما لا يستطيع القيام بكل هذه الإجراءات العقيمة ناهيك عن الانتظار بالساعات! أين الرحمة؟ أين السهولة في التعامل؟ هل يريد الطبيب ضمان امتلاء العيادة عن

بكرة أبيها قبل التفضل والتكرم بالحضور للمرضى؟! لم نعرف أين نذهب فلم يكن بوسعنا سوى الانتظار في العيادة حتى يحين موعد مقابلة الطبيب.

كانت كل الحالات التي في العيادة بالغة الصعوبة. كان هناك الكثير من حالات التشوهات الخلقية أو حالات الضمور الكاملة في العضلات. كنت أراقب ابني وهو يشاهد هذه الحالات عن كثب. وفي أثناء الانتظار دخلت امرأة أنيقة تفننت في اختيار ملابسها وتناسق ألوانها. كانت جميلة وتألق جمالها ببعض رتوش من مساحيق التجميل الذي أبرزت عينيها وصبغت شفتيها بلون وردي هادئ. بعدها بلحظات دخل زوجها يحمل ولدا في العاشرة من عمره. طفلا جميلا كأمه ذا شعر أسود ناعم ربطته له أمه للخلف. كان الولد مصابا بضمور كامل في اليدين والرجلين! وأدركت سر طول شعره الملحوظ، فكيف لهم أن يأخذوه للحلاق بهذا الوضع؟! تأملتها بعد أن جلست في الكرسي المقابل لي. كل هذا الجمال وكل هذه الأناقة، ثم هذا الطفل

وهذه المسئولية الأبدية الجبارة! لا بد أن كل من يراها لن يظن أبدا أن وراء هذه الطلة البهية مأساة يومية ومهمة شاقة. لقد أحسنت بعدم إهمال نفسها في خضم هذه الأحداث. أعجبت بتصالحها مع وضعها وبتعاملها التلقائي، والفصل بين مهامها أما لطفل معاق وبين كينونتها أنثى.

دخل آخر يحمل طفلة في الخامسة مصابة بتقوس شديد في الظهر لم أرَ له مثيلا من قبل. سأل الرجل عن موعد تواجد الطبيب وسعر الكشف بلهجة عربية شقيقة. فوجئت بإجابة السكرتير أن سعر الكشف ضعف ما دفعنا.

- ولكن هذا ليس ما أخبرتنا به جارتنا عندما رشحت لنا الطبيب!

- نعم، هناك سعر للمصريين وسعر لغير المصريين.

- هذا ليس عدلا. نحن هنا لاجئون أجبرتنا ظروف الحرب في بلدنا على ترك الغالي والنفيس. يجب على الطبيب مراعاة الحالات الإنسانية.

ـ مع الأسف هذه تعليمات، ولا أملك إلا تنفيذها.

دفع الرجل الكشف المضاعف مرغما وقد ارتسمت على وجهه كل علامات الذل والحسرة المشوبة بالغضب. تأملته وتأملت ابنته. كانت ملابسهم بسيطة ويبدو أنهم يمرون بظروف معيشية صعبة. شعرت بالغضب الشديد من هذا الطبيب ومن منطقه المادي في التعامل مع المرضى! لماذا هذا الأسلوب المجرد من كل معاني الرحمة والإنسانية؟ أنت طبيب أطفال، فما الفرق بين الطفل المصري والطفل غير المصري؟ كلهم أطفال وكلهم مرضى! فقد مصداقيته هو الآخر وكونت صورة ذهنية عنه شحنتني بالغضب منه قبل رؤيته. وبعد ساعتين من الانتظار الممل والمتوتر وصل الطبيب، دخل غرفته وبدأ عمله على الفور. قابلنا في عجالة وطلب إجراء المزيد من الأشعة والرنين المغناطيسي؛ للتأكد من سلامة الرجل الأخرى! لم يعطني فرصة للحديث ويبدو أنه دق زرا خفيا ليدخل السكرتير معلنا انتهاء

المقابلة ومعلنا عن اسم المريض التالي! صدق حدسي في الطبيب المادي الذي لم يمهلني وقتا كافيا للحديث بعد أن تكبدت كل هذا العناء وشددنا الرحال من أقصى المدينة.

آه من الرجل الأخرى! لقد كان من ضمن أسباب توتري ما يكتبه أعضاء المجموعة من أن بعض الأطفال يصابون بالمرض في مفصلي الحوض مما يقعدهم عن الحركة تماما لبضع سنين! وكثير منهم ظهر المرض فيها تباعا بعد عام أو عامين أو ربما أكثر من الإصابة في الرجل الأولى! كان طلبا منطقيا فذهبنا لإجراء الأشعة ثم الرنين. كانت تجربة الرنين مؤلمة ومخيفة لطفل في الثامنة من عمره.. كان قد أتم الثامنة لتوه! قابلتنا ممرضة بشوشة الوجه وقادتني لطبيب الأشعة الذي استفسر مني سريعا عن سبب الرنين والشكوى الموجودة. وسألني إن كان سيحتاج تخديرا أم لا. وعندما هززت رأسي نافية؛ سمح لي بالتواجد معه في غرفة الرنين ليشعر بالطمأنينة. دخلت معه إلى الغرفة المخيفة

التي يتوسطها جهاز الرنين الأنبوبي الشكل. كان نفقا مخيفا عليه الدخول فيه بل الاستماع للأصوات المقبضة التي يصدرها الجهاز بين الفينة والأخرى. ودخل النفق العجيب. لم تكن أشعة سريعة يلتقط بها الفني الصورة ثم ننصرف، بل كان علينا المكوث بمفردنا في هذه الغرفة لعشرين دقيقة كاملة. آلمني مشهد ابني وهو يتعرض لكل هذه التجارب القاسية، ولكن لا بد من الرضا بقضاء الله، ومهما كان الأمر محزنا فهناك من الابتلاء ما هو أفجع وأصعب، ولكن النفس البشرية ضعيفة. ربما ما كنت لأتحمل أي شيء يصيبني، لكن الأصعب أن أرى صغيري يتألم ويواجه مصيرا مجهولا. كان شجاعا وثابتا وامتثل للأمر، لم يخف من الرنين المغناطيسي المزعج ولم يتململ من الفحص.

استلمت النتائج وقرأت التقرير وحمدت الله كثيرا على سلامة الرجل اليسرى وانتظام الدورة الدموية فيها. بقيَ القرار المتوقف على حالة الأشعة الجديدة. عدنا للطبيب السادس في الأسبوع التالي،

فحص النتائج وكان أكثر استفاضة في الحديث هذه المرة. لم يكن في عجلة من أمره كالمرة السابقة ولم يدخل السكرتير سريعا لينهي اللقاء. تبادلنا النقاش كالعادة بكل المصطلحات العلمية الإنجليزية؛ مما سهل له عمله وسهل عليّ طرح كل الأسئلة والنقاط التي تقلقني. كان التدخل الجراحي أمرا لازما في رأيه هو الآخر، لكن كانت العملية المقترحة مختلفة كل الاختلاف. فتح لي جهاز اللاب توب الخاص به ليريني صور العملية، وفي أثناء انشغاله بفتح الملفات المطلوبة تأملت عيادته الأنيقة وصورته الكبيرة التي تزين منتصف الجدار خلفه. كانت صورة حديثة له يوم زفافه. كان في العقد السادس من العمر، خط المشيب رأسه ولحيته البيضاء التي تغلف وجها وسيما تعذر العجز عن النيل منه. كان وسيما ممشوق القوام، وكان من الواضح أنه تزوج حديثا عروسا جميلة، وأنه من فرط سعادته وضع صورة زفافه في العيادة ليراها كل من هب ودب! كانت الصورة جميلة ومستفزة.

جميلة للسعادة الغامرة للعروسين التي لا تخطئها العين، ومستفزة لأنه برغم سنه وشيبته تتأبط ذراعه عروس في فستان زفاف يكشف أكثر مما يستر، ووضعها على مرأى ومسمع من رواد عيادته الكثرا! وهناك على الجانب الآخر صورة قديمة نوعا ما لأم وثلاثة أطفال يشبهون أباهم الوسيم. لم يكن من الصعب معرفة هوية الأم القديمة وأولادها الصغارا!

ـ «هذه هي العملية التي أجريتها مؤخرا!».

انتبهت من تأملاتي على صوت الطبيب وهو يدير الشاشة في اتجاهي ليشرح لي. وعرض عليّ العمليات المماثلة التي قام بها وهي Pelvic Osteotomy Salter وكيف أن نسبة النجاح مضمونة لحدٍّ كبيرٍ جدا. وكالعادة ناقشني كما لو كنت طبيبة وأثنى على دراستي المستفيضة لحالة ابني، وكيف أنه يشعر بالراحة في التعامل مع مثل هؤلاء الأمهات لأنهن يساعدنه على إتمام المهمة بنجاح

بفضل وعيهن وحرصهن. كان يقترح أخذ جزء من عظام الحوض الذي يمثل مخزنا إلهيا لباقي الجسم وعمل ما يشبه مظلة فوق العظمة المصابة وتثبيتها بالشرائح والمسامير لحمايتها من الاحتكاك بالحوض، وتوفير سقف يحميها من التآكل حتى انقضاء فترة انقطاع الدم بسلام، مع إجراء تحويل لمسار الدم ليغذي المنطقة المصابة، بالإضافة إلى قطع وتر الرجل اليمنى العلوي وإرخائه حيث بدأ يتقلص من انقطاع الدم مما يعيق حركة الرجل.

كان زوجي يجلس في نهاية الغرفة ملتزما الصمت التام لا يشارك في نقاش ولا استفسار. لقد آلمه منظر الصور التي عرضها الطبيب! كان الطبيب واثقا من نفسه ومن النتائج. وكنت لا أرى بدا من الانصياع لرأيه طالما أن كل المتخصصين أجمعوا على وجوب التدخل الجراحي! كانت عملية كبيرة سيفقد فيها الكثير من الدماء، كما سيكون الألم مبرحا لبعض الوقت. كان شهيرا يشهد له الجميع بالمهارة. اقترح يوما للعملية، ولكن كانت المستشفى

التي يعمل بها هي محل الخلاف ولا بديل لها عنده.
ظل زوجي منتحيا جانب الغرفة يستمع لنا في صمت حتى فاجأه الطبيب قائلا:

ـ عفوا.. هل أنت والد الطفل؟

ـ نعم!

ـ لماذا لا تشاركنا في الحديث إذًا؟

ـ لا عليك أيها الطبيب! أنا أترك الأمر لأمه فهي من درست الحالة تماما، وأنا لا أفهم كل المصطلحات الطبية التي تتداولونها!

غادرنا العيادة وفي السيارة أبدى زوجي غضبه من تعليقات الطبيب.

ـ لماذا تصرين دوما على التحدث معهم بلغتهم الطبية؟

ـ ولماذا لا أفعل، طالما أملك القدرة على فهم ما يقولون فهذا يسهل عليهم الكلام والاستفاضة في الشرح، ويسهل عليّ سؤالهم في كل التفاصيل؟

لماذا لا تشاركنا؟ يجب عليك أن تعرف كل المصطلحات، أنسيت من تكون؟ أنت حاصل على الدكتوراه من أكبر الجامعات البريطانية، ولن تعجزك بعض المصطلحات العلمية. ضفها يا سيدي إلى مصطلحاتك الهندسية، لا ضير في ذلك! الأمر ليس مستحيلا بالنسبة إليك!

أصر على موقفه وأصررت على موقفي. ما دمت أملك إدارة الحديث بحرفية مع الطبيب، فلماذا لا أفعل؟ لماذا أنصت دون مناقشة ما دمت قادرة على المناقشة والاستفهام عن الأمر بدقة؟ عجبا لهؤلاء الرجال! كيف يستطيعون تجاهل الأمور بهذه البساطة؟ كيف يتعامل بهذا الهدوء القاتل مع مشكلة بهذا الحجم؟ لا أفهم أبدا!

وذهبنا لعمل فحوصات الدم اللازمة قبل العملية على أمل العودة للحديث في باقي الترتيبات. لم نكن قد تطرقنا مع أي من الجراحين السابقين عن التكلفة المادية للعملية. كنت أدرك أن جراحة العظام

من أكثر العمليات تكلفة وخطورة فيما يتعلق بتلوث الجرح والتهابات العظام القاتلة. والتزمت أنا الصمت التام طوال طريق العودة.

كان القرار الصعب يجثم على صدري فيكتم أنفاسي ويشوش تفكيري. يبدو أن الجراحة لا مفر منها، لكن أي الجراحين أسلمه ابني؟ أي عملية، وأي مستشفى؟ لم يكن الأمر يتعلق بالماديات على الإطلاق، لكن بالثقة في كفاءة الطبيب ونظافة وتعقيم غرفة العمليات في المستشفيات المطروحة.

٦

لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء..

طرق متعددة وخطوات متذبذبة

عدت للمنزل لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم. وكان زوجي كعادته يلتزم الصمت. أدرك تماما أنه خائف وقلق لكنني أحتاج إلى من يساندني؛ من يشاركني الهم والقرار لا من يترك لي زمام أخطر القرارات. كان عقلي غائبا في غياهب المرض والجراحة. أستعيد كلام كل الأطباء وكل ما قرأت. لم أكن أمر بيوم معتاد أو وقت مألوف. لم يكن تحضير العشاء وما إلى ذلك هو جل اهتمامي في هذه اللحظة برغم طلبات كل أهل البيت التي لا تنتهي. بل كان جوجل والبحث الدءوب، ولا شيء سوى ذلك شاء من شاء وأبى من أبى. واحتد النقاش وتوترت الأجواء كما لو كنت غير محقة في قلقي، وكما لو كنت أفتعل سببا للقلق والحيرة.

كنت في حالة تتعدى تحضير العشاء لمجموعة

من الراشدين الذين يستطيعون خدمة أنفسهم. وكنت في غنى عن أي شكوى لا محل لها من الإعراب سواء من أمي وجليستها، أم غير ذلك. كنت أرفض تعامل زوجي مع الواقع كأنه غير حقيقي. كنت أرفض محاولته الهروب والتظاهر بأن شيئا لم يكن، والاهتمام بالحياة العادية بمنأى عن الحادث الجلل الذي نمر به.

كنت حانقة لأنه لا يشعر بكم الغم والهم والقلق الذي أمر به. لا بد أنه أكثر قلقا لكنه لا يظهره أو يقاومه بمجرد تجاهل وجوده. لماذا لا أستطيع فعل ذلك مثله؟ لماذا تسيطر عليَّ الأفكار حتى في أثناء نومي وتقض مضجعي؟ لماذا لا أستطيع نسيان الأمر ولو لساعات قليلة أمارس فيها حياتي بشكل طبيعي؟ لماذا أشعر بالخوف والانقباض؟ هل لأنني أعلم أكثر فقلقي أكبر؟ هل قراءتي ودراستي للحالة هما السبب؟ من يعلم ليس كمن لا يعلم! هل الجهل نعمة في مثل هذه الحالات؟ كنت أحتاج لسلوان ولأنيس ولم أجده سوى في الصلاة واللجوء لله في

جوف الليل. لا بشر يواسيني ولا يخفف ما بي. ليس لي سواه. لا مفر من الهروب من الابتلاء إلا إلى خالق الابتلاء.

وقضيت الليل كعادتي أستشير الأصدقاء عبر شبكة الإنترنت وأبحث إمكانية السفر للخارج، طالما كانت الجراحة ملحة ولا مناص منها كما أجمع الأطباء. استشرت صديقتي الأسكتلندية «جوان»؛ فهي ممرضة وتعلم جيدا ما معنى جراحة عظام. كانت قد حاولت تشجيعي على السفر للندن لإجراء العملية مهما كلف الأمر. كانت دوما تحذرني من التلوث المحتمل بعد عمليات بهذه الخطورة، وكيف أن تلوث العظام يمكن أن يدمر الجسم ويصبح حينها المرض الأصلي شيئا لا يذكر أمام ما يمكن أن يستجد من مشكلات. أما صديقتي الأخرى «كريستين» فلم تألُ جهدا في البحث عن طبيب مختص في جلاسجو.

وفي يوم تصفحت آخر منشورات مجموعة

الدعم لأجد «دونا» إحدى عضوات المجموعة تذكر لي أن حالة ابنتها وعمرها كانا مشابهين لحالة «محمد»، وأنها رفضت التدخل الجراحي العنيف ولجأت إلى المثبت المعدني الخارجي. مثبت معدني خارجي! كانت هذه أول مرة أسمع به. ما جهاز «الإليزاروف» هذا؟ وما شكله؟ هل حقا يمكنه تقديم حل بدون جراحة وبدون جروح غائرة؟ لماذا لم أقرأ عنه قبل ذلك؟ بدا الأمر لي مبهما وصعب التحقيق لأن كل من قابلتهم من الأطباء لم يذكروه من قريب ولا من بعيد. أرسلت لي بعض الروابط لأطلع على الأمر وأقرأ عنه. استفضت في البحث عن هذا الحل المقترح الجديد الذي برغم قساوة مظهره فإنني لم أرفضه.

علم أخو زوجي بكلام الجراح الشهير ورفض المستشفى الذي يعمل به؛ لأنه كان قد أجرى بها جراحة حديثا، وكانت الخدمة بها في منتهى السوء برغم المبالغ الباهظة التي حصلوا عليها. كان برغم شهرته يشكو منه الكثيرون. وجاء لزيارتنا مع أحد

أصدقائه وكان الصديق طبيب عظام. اطلع الطبيب الصديق رقم (٧) في القائمة على كل الأشعة ورفض فكرة إجراء أي نوع من الجراحات. كان رأيه أن عملية استبدال المفصل في المستقبل أفضل من تعريض الولد لمثل هذه المخاطرة في الصغر. كان الإصرار على الجراحة في رأيه فرصة من الأطباء لجني المال واستغلال الموقف، وأنها ليست بالضرورة القصوى كما يقولون، وأن المفصل سيعود كما كان إن عاجلا أم آجلا. كان هذا الكلام هو الرأي الطبي السابع في قائمة الاستشارات. كان كلام هذا الطبيب مقنعا بالنسبة إلى العائلة جميعا، لكني لم أكن مقتنعة ولم ألمس به خبرة في التعامل مع هذه الحالة النادرة. كان كلامه مرضيا لمن يرغب في تجنب الجراحة وتجاهل الحالة برمتها ولكن ليس بالنسبة إليّ!

وكانت عمة الأولاد تنتوي السفر للبحر الأحمر ليومين واقترحت علينا الذهاب برفقتها. كانت ترى أننا في حاجة لبعض الهدوء لاتخاذ القرار، وأن الولد

بحاجة لبعض الترفيه والانطلاق إن قررنا الذهاب للجراح في الوقت المحدد للعملية. رحبت بالفكرة لأنني كنت حقا على شفا الانهيار بسبب كثرة التفكير وتعدد الآراء. أتعبني التفكير وأرهقني الإنترنت وما تحمله صفحاته من معلومات وقصص وصور. أردت هدنة من هؤلاء وهؤلاء. سافرنا وكانت فرصة للاختلاء بالبحر والتفكير بعمق. جلست على الشاطيء ليلا أفكر في هدوء، وبعدما أعياني التفكير اتصلت بـ«شريف» ابن عمي مرة أخرى وطلبت منه أن يشاركني التفكير بصوتٍ عالٍ. لم يستبعد وجود شبهة التربح المادي من عملية ربما لا تكون ذات ضرورة قصوى، ولم يستبعد ضرورتها في الوقت ذاته. هو دكتور أمراض نساء وولادة ولا علم له عن الحالة إطلاقا لكنه قال لي إن عمليات العظام خطيرة وفكرة التعرض للتلوث مخيفة؛ لأنها يمكن أن تسبب كوارث تفوق المرض نفسه، وكان رأيه متفقا مع ما قالته لي صديقتي الممرضة الإنجليزية «جوان». طلب مني معاودة الاتصال به بعد قليل

لأنه سيحاول استشارة زميل له. استشار «شريف» زميله طبيب العظام، وطلب مني إرسال صور الأشعة له. ولحسن حظي كانت كل الأشعات محفوظة عندي على هاتفي المحمول. أرسلتها لصديقه الطبيب الجديد عبر خدمة (واتس آب)، وكان الرد أن الحالة ليست بهذا السوء وأن عليَّ زيارته في العيادة فور عودتي من السفر.

تنفست الصعداء أخيرا ولو ليومين فقط؛ فقد كنت في أمسّ الحاجة لفترة من الهدنة. حاولت الاستمتاع قدر المستطاع، ولكنني لم أستطع منع قلبي من الاعتصار ألما كلما نظرت لصغيري الذي يعرج ولا يستطيع الجري والركض واللحاق برفاقه، الذين تسبق خطواتهم خطواته الصغيرة العرجاء دون قصد منهم! كانوا يستحثونه على المشي بسرعة، ونسوا تماما ما أخبرتهم به على انفراد من صعوبة ما يمر به «محمد» من ألم في رجله! لا لوم عليهم فهم أطفال في نهاية الأمر!

عدت إلى القاهرة بعد يومين وذهبت للطبيب الذي انضم للقائمة باحتلال رقم (٨) الذي استقبلنا بحفاوة بالغة، ورفض أن يتقاضى أتعابه المعتادة. جلس معنا وشرح لنا الحالة بالتفصيل، ولكنه قال إن التدخل مطلوب في أسرع وقت وإنه ليس مختصا بالأطفال، وإن علينا الذهاب لجراح عظام يجري عمليات للأطفال. رأيت خلفه مجسما لجهاز إليزاروف. أشرت إليه وسألته عن المثبت الخارجي، فتعجب من معرفتي الشاملة بهذا الإجراء الذي يستخدمه أطباء العظام في حالات الكسور الشديدة. أشار عليّ بعرض «محمد» على دكتور «هاني حفني»؛ فهو أستاذ جامعي قدير وجراح ماهر، وعليّ أن أفعل ما يقوله دون تردد أو نقاش. تركنا العيادة واتصلت بالدليل من السيارة وحجزت موعدا في عيادة دكتور «هاني» لليوم التالي.

٧

ثبوت بعد اختلال

لم أنم كالعادة؛ وقضيت ليلي بين استخارة الله تعالى والدعاء وتصفح الإنترنت بحثا عن كل ما تقع عليه يدي من معلومات عن هذا الهيكل المعدني. لم أنسَ أيضا البحث عن كل المعلومات المختصة بهذا الطبيب الجديد: من هو، وما هي الحالات المختص بها، وأين يعمل؟ بل قرأت سيرته الذاتية بكل تفاصيلها الدقيقة. لم يعد مبهما بالنسبة إليّ، وأشعرتني كل المعلومات بالراحة والاطمئنان بالسير قدما ومقابلته. في اليوم التالي ذهبنا للدكتور «هاني حفني» الطبيب رقم (٩) في قائمتي، وفي الطريق حذرني زوجي من مناقشة الطبيب بمصطلحات طبية كما لو كنت طبيبة مثله؛ لأن ذلك يجعلني أبدو (سخيفة)! لم يعجبني كلامه بل ملأني بالسخط لأنني لم ألمس ذلك مع معظم من قابلتهم من الأطباء؛ بل على العكس كان إلمامي بالمرض وكل المصطلحات الطبية عاملا مساعدا

على فهم الموقف بتفاصيله، لكن ظلت عبارة زوجي تتردد في أذني. هل أبدو سخيفة حقا؟ لم أشعر بذلك اللهم إلا من الطبيب الثالث الذي انشغل عنا بهاتفه المحمول. ما الضير في مناقشة الطبيب بثقة وبمصطلحات طبية سليمة؟ ألم أدرس الحالة باستفاضة؟ كيف سأتخذ القرار إذًا؟ أليس ذلك أجدى نفعا من الصمت الرهيب الذي يلتزمه هو في مقابلة الطبيب؟ سخيفة سخيفة لا أبالي طالما الأمر في مصلحة ابني!

كانت العيادة تبعد حوالي ٤٥ دقيقة من حيث نسكن. عيادة في قلب منطقة روكسي. للعيادة بافطتان واحدة قديمة وأخرى حديثة. دخلنا العيادة وكان الانطباع الأول أنها مريحة نفسيا وبها الكثير والكثير من المقاعد بل مبرد مياه أيضا. لا تعقيدات هنا ولا اشتراطات للحجز المسبق، بل الدخول بأسبقية الحضور. تذكرت عيادة الطبيب الآخر الذي ترك مرضاه الصغار يفترشون الطرقات، وقارن عقلي بين تفاعل هذا الطبيب مع زائريه من المرضى

وتفاعل الآخر الذي تركهم يفترشون الشارع والرصفان! الجدران تمتلئ بقصائد شعر كتبها المرضى للطبيب عرفانا وشكرا، وكان هذا أكثر ما أثار انتباهي وفضولي للتعرف على هذا الطبيب المحبوب الذي كتب فيه المرضى الشعر، بل رسم البعض له اللوحات الفنية. في الصدارة لوحة زيتية متقنة للطبيب كتب تحتها: (أعدت البسمة لنا.. حماك الله ورعاك).

انشغلت بقراءة ما كتب وسرعان ما أدركت أن بعض القصائد تعود لوالد الطبيب نفسه كتبها له مرضاه منذ عدة سنوات مضت. نعم، هو الاسم الذي كان على اليافطة أسفل المبنى. انشغلت بقراءة قصيدة قرضها أحد المرضى في الطبيب ووالده:

زنت الأطبـاء في علمٍ وفي خلـق أنت النطاس وفي لقياكم عيدي

رب الجراحــة بل أنت الإمـام لهم أنت النجـاح وإن غبتم فمفقود

كم من مرض تداوى من محاسنكم وراح يرقص في دنيا الزغاريد

استوقفتني كلمة (نطاس) وأثارت فضولي اللغوي. فأخرجت هاتفي المحمول ولجأت لصديقي جوجل وبحثت عنها في لسان العرب لأجد أن معناها: عالم بالأمور حاذق بالطب وغيرهما.

ومن السودان إهداء يفيض بالعرفان:

«حينما اشتد بي اليأس وضاقت عليّ الدنيا برحبها رفعت يدي للسماء مناجيا من يقول للشيء: كن فيكون؛ من لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء فسخركم وكنتم لي ركنا منيرا أضاء حياتي وجعلكم سببا لأقبل على الحياة من جديد.

دكتور هاني نافذة للأمل.. إشراق بعد الغروب. لا بد للتاريخ أن يقف عند عطائكم إجلالا وتقديرا توفون بيض الأيادي تتعالى هممكم دوما بذلا وعطاء».

انتهيت من القراءة في انبهار. هذه أول مرة أرى فيها ملحمة من الشكر والتقدير من مرضى لطبيبهم. انتظرت وكلي حماسة لمعرفة من هو هذا الطبيب،

فلم أرَ جدارا يفيض بحب المرضى مثل هذا الجدار الذي تراصت عليه اللوحات في فخر.

جاء الطبيب في موعده، وكان هذا هو ثاني انطباع إيجابي فهو لم يتأخر عن موعده ساعتين أو ثلاث ساعات كما يفعل غيره من الأطباء. طبيب هادئ الطباع كما يبدو من ملامح وجهه، في أواخر العقد الخامس من العمر، أنيق واثق الخطى. دخل العيادة بابتسامة مريحة حيا بها مرضاه الذين جلسوا في انتظاره وبدأ عمله على الفور.

حان دورنا ودخلت بين تحمس ووجوم وكلمات زوجي تتردد في ذهني. سأحاول ألا أكون سخيفة قدر استطاعتي. كانت غرفة الطبيب بها مكتب فاخر يقابله كرسيان فاخران. كانت الزيارة مقتضبة ولم أتكلم كعادتي عند أول زيارة لأي طبيب. فحص الطبيب ابني ونظر لنا وقال بثقة:

ـ حالته ليست بهذا السوء. سنمنحه ثلاثة أشهر أخرى فلربما عادت الأمور لطبيعتها من جديد. علينا

منحه فرصة مناسبة. نحن الآن في شهر أغسطس، عودوا إليّ في شهر نوفمبر بأشعة جديدة.

لم أتمالك نفسي من أن أذكر له أنني درست الحالة جيدا وسأفهم كل ما يقوله، لكنه اكتفى بنظرة حازمة وإيماءة من رأسه ولم يعلق! كنت لا أصدق ما سمعته للتو! هل قال ذلك حقا، أم أنها تهيؤات عقلي؟ اندفعت قائلة:

ـ ثلاثة أشهر يا دكتور؟ كيف يمكن هذا؟ لقد كنا على شفا جراحة مؤكدة الأسبوع الماضي! هل أنت جاد يا دكتور؟ هل ما زال هناك أمل في انتظام الدورة الدموية من جديد؟

نظر إليّ الدكتور نظرة هادئة ربما تلومني على تشككي في قراره، ولكنه ابتسم قائلا في هدوء:

ـ سبحان العليم! ربما تنتظم الدورة الدموية من جديد. لا توجد مدة محددة لانقطاع الدم أو عودته مرة أخرى. سنمنحه فرصته حتى النهاية.

كنت أردد الجملة ولا أكاد أصدقها. وها هو هذا الطبيب المخضرم الثقة يعطيني بارقة أمل بالانتظار لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا. شيء ما داخلي كان يحثني على الانصياع والتسليم التام بما يقوله. لقد استخرت الله مرارا وتكرارا ليلهمني الصواب ويدلني على الطبيب المناسب، وهأنذا أجلس أمامه. لقد أوصانا طبيب الأمس بالانصياع التام لما سيقوله هذا الطبيب وسأفعل. كانت الزيارة مقتضبة حاولت ألا أكون (سخيفة) قدر المستطاع أو لربما كنت كذلك؛ لا يهم!

عدت إلى البيت بشعور من الراحة يسيطر عليَّ. ما أحلى الاطمئنان بعد الخوف والترقب! لماذا لا أشكك في رأيه؟ لماذا أتقبل كلام هذا الطبيب بدون اعتراض؟ هل لأنه أزاح شبح العملية جانبا لبعض الوقت؟ لقد فعلها غيره ولم أرضَ بكلامهم فما الاختلاف هذه المرة؟ هل هي الاستخارة والدعاء قد آتتا ثمارهما؟ هل تأثرت بملحمة الحب التي غزلها مرضاه؟ للدكتور «هاني» هيبة العلماء لكنه

متواضع تشعر أنك تعرفه من قبل؛ فلا تتهيب الحديث معه. ما زال هناك وقت، وحتى إن كان هذا الرأي فردا أمام الآخرين فأنا معه وأنا مرتاحة لهذا الرأي ولهذا الجراح وسأكمل معه الطريق. لا أميل لرأيه لمجرد أنه لم يتعجل الجراحة؛ فلقد سبقه غيره، لكنني لم أثق في كلامهم مع ذلك. لماذا هذه الراحة وهذه الثقة العمياء؟ لماذا هذا الطبيب الذي وصلنا إليه بعد عناء واستشارة ثمانية أطباء غيره؟ كنا في الأسبوع الأول من شهر سبتمبر والدراسة لم تبدأ بعد؛ أي ما زال لدينا وقت لتعويض ما فاتنا من مرح. أوصى الطبيب بالسباحة وركوب الدراجة قدر المستطاع، لكنه أكد على السباحة في وضعية معينة لتليين المفصل في الحوض. أنخت ركابي على باب عيادته وقررت الكفَّ عن البحث. سأنحي الإنترنت جانبا لبعض الوقت، وسأكف عن القراءة والبحث. سآخذ فترة هدنة أشحن فيها طاقتي استعدادا لما هو آتٍ وأجهله.

كان موعد العودة ١١ نوفمبر؛ أي بعد بدء الدراسة

بشهر ونصف الشهر. ما أجمل الثبات بعد اختلال التوازن!

كانت السباحة هي المتنفس الوحيد لـ«محمد»؛ فهي تتيح له الانطلاق دون أن تسبب له الألم أو العرج. لكن مع الوقت تحولت الزيارة اليومية لحمام السباحة إلى التزام أصابه بالملل. كان يريد الركض والانطلاق وكان المشي من موقف السيارات وحتى نصل إلى حمام السباحة أمرا مزعجا له، بل مشقة في بعض الأحيان. وفي ذات يوم رأى طفلة تستخدم عكازا عند بوابة النادي. ظل يراقبها وهي تضرب الأرض بعكازيها حتى اختفت عن الأنظار. رمقته وهو يتابعها باهتمام. التفت إليّ وقال:

- أمي! أريد عكازا مثل هذا. سيساعدني على المشي بسهولة. أشعر بذلك!

سرت كلماته كالسم في عروقي حتى وصلت لحلقي فشعرت بمرارة لا توصف. لماذا يفكر في العكاز؟ هل يشعر حقا بمشقة في المشي؟ كل

الأطفال في (مجموعة الدعم) يستخدمون الكراسي المتحركة أو العكازين منذ اليوم الأول لاكتشاف المرض، لكن تنفيذ ذلك مستحيل في مصر. شوارعنا تختلف عن شوارع أستراليا، ونيوزيلندا، وبريطانيا، وغيرها. شوارعنا غير مهيئة لذوي الاحتياجات الخاصة كما في الغرب، وكذلك مكان السكن. طرقنا مليئة بالحفر وهي غير مستوية، فربما يتعثر في حجر أو في نقرة في الأرض. كيف يستخدم عكازا أو كرسيا متحركا في شوارع القاهرة وأرصفتها؟ لقد كنت أعلم أن الأطفال المصابين بمرض برتز مثله في الدول الأوروبية يمنعهم الطبيب من المشي إلا باستخدام كرسي متحرك أو عكازات؛ حتى يخفف من الضغط على العظمة الهشة المتفتتة؛ لكن كانت هذه الفكرة تجلب معها مزيدا من الحيرة والألم. ولم يقتصر الأمر على المشي بل أصبحت السلالم تحديا يوميا ثقيل الظل عليه وعليّ؛ لأنني كان عليّ أن أحمله صعودا دورين كاملين، وكانت في الأمر مشقة بالغة؛ لأنني سبق وأن كسرت رجلي فبدأت تئن من

الحمل. كنت أحيانا أنتظر عودة والده أو أخيه ليحملاه، وأحيانا أخرى يطول بنا الانتظار، ولحسن الحظ أن من يسكن في الطابق الأرضي جده وجدته! حتى الدراجة قلَّ وقت لعبه عليها. كان تحريك المفصل يصيبه بالألم. كانت الحالة تتدهور بسرعة واضحة له ولي.

وفي يوم من الأيام قبل بدء الدراسة كان متململا ويشكو من الضجر. كان يريد الخروج لمكان آخر غير النادي وغير السباحة، وكان إيجاد المكان المناسب أمرا شاقا فكل مكان يحتاج للمشي، وكان المشي مزعجا ومؤلما له. فكرت وعرضت عليه الذهاب للتسوق في أحد المراكز التجارية القريبة التي بها سلالم متحركة ستخفف عليه وعليَّ عناء طلوع السلالم، ولن نمشي كثيرا في الداخل سندخل أول متجر للمواد الغذائية ليشتري منه هو ويوسف الصغير ما يريدان من الحلوى ونعود للبيت سريعا. أعجبته الفكرة وذهبنا لأقرب مركز تجاري من بيتنا ولكن على السلالم المتحركة اختلَّ توازنه

وحدث شيء ما فصرخ وقال: عظمة فخذي تؤلمني بشدة. انحنى للأمام وزادت عرجته وكان يشتكي من الألم. بطبيعة الحال أدركت أنه ربما تفتتت العظمة الضعيفة أو حدث انهيار لها. هرعت لإجراء أشعة جديدة، ووجدت أن بعض التفتت الجديد قد حدث بالفعل.

عدت إلى الدكتور «هاني» مرة أخرى بعد شهر واحد من الاتفاق. نظر إليّ وسألني: لماذا عدت مبكرة وقد طلبت مسبقا العودة بعد ثلاثة أشهر؟ فحكيت له ما حدث. كان أكثر تفهما هذه المرة، وأخبرته أنني على دراية تامة بالحالة، وأنني أدرسها منذ شهر إبريل الماضي.

ـ يمكنك اختباري في أي شيء في حالته. لقد قرأت كل شيء. اشرح لي باستفاضة وسأفهم ما تقول تماما يا دكتور.

ـ لا تقلقي! لا جديد استمري على السباحة وموعدنا كما هو.

طلبت منه تقريرا طبيا لأقدمه للمدرسة؛ لأنه لن يستطيع الوقوف في طابور الصباح أو حمل شنطة المدرسة الثقيلة، فطلب مني العودة لاحقا لأخذ خطاب موجه لمديرة المدرسة من مساعده الدكتور «مصطفى بركة»، الذي ـ للمفارقة ـ يحمل نفس اسم عائلة زوجي. عدت بعد يومين لأخذ الخطاب الذي تركه لي الطبيب المساعد وضحك السكرتير عندما رآني وقال:

ـ لقد كان تشابه الاسم محور حديثنا جميعا بالأمس! سيكون هذا المريض مميزا من الآن فصاعدا.. أصبح لدينا «بركة» جديد.

بدأت الدراسة وقدمت الخطاب لمديرة المدرسة وتفضلت مشكورة بالتعاون معي؛ فكنت أصطحبه للمدرسة بعد انتهاء الطابور، وأحمل شنطة المدرسة المكتظة بالكتب حتى فصله في الطابق الأول. كان الصف الرابع الابتدائي في الطابق الأول لكن بالنسبة إلى ابني كان الصعود مشقة كبيرة. كان

يمسك بدرابزين السلم بيديه الاثنتين فلم تكن هناك يد لتحمل الشنطة الثقيلة ولا عظام لتتحمل وزنه هو شخصيا، ناهيك عن شنطة تكتظ بالكتب! وفي نهاية اليوم الدراسي كنت أذهب إليه وأصعد للفصل وأنزل معه لأحمل الشنطة، ثم أصطحب أخاه الصغير من المدرسة ذاتها ونبدأ الجزء الثاني من اليوم وهو الذهاب للنادي وحمام السباحة.

كان لا بد من اغتنام فرصة أنه خارج المنزل للذهاب للسباحة؛ لأننا لو عدنا فستواجهنا مشكلة الصعود للبيت ثم النزول منه ثم الصعود مرة أخرى في نهاية اليوم بعد الانتهاء من السباحة! كان الحل الوحيد هو الذهاب مباشرة بعد المدرسة، ثم العودة وطلوع السلم مرة واحدة حتى اليوم التالي عندما يحين موعد الذهاب للمدرسة. كانت الخطة منطقية ومرتبة بالنسبة إلى تفكيري أنا، لكن بالنسبة إلى الصغيرين كانت مرهقة لأن اليوم الدراسي طويل، ويكونان مرهقين في نهايته. أحيانا كنت أحضر لهما غداءً سريعا يتناولونه بعد السباحة، وأحيانا أخرى

كنت أجد أنه بعد السباحة يكون متعبا جدا ولا طاقة لديه ويريد العودة للمنزل بأسرع وقت.

مضى شهر ونصف الشهر ونحن على هذا الروتين اليومي. وفي يوم عاد من المدرسة وهو يعرج بشدة بصورة غير مسبوقة. نظرت إليه في هلع:

ـ «محمد»! ماذا حدث؟ هل سقطت؟ هل دفعك أحدهم؟

لم يجبني! كان يعرج بشدة ويتألم، بل لم يكن يستطيع أن يضع قدمه على الأرض وكان اليوم التالي هو الجمعة فلم أستطع الذهاب للمدرسة والاستفسار عما حدث. لم يستطع طبعا الذهاب للسباحة، وراقبته وهو يتألم وأنا في قمة القلق والحيرة. كان يوم الأحد التالي هو أول يوم في الامتحانات الشهرية، وبالطبع لم يكن الغياب عنها أمرا واردا على الاطلاق! كان يتألم وعجز عن المشي فكيف السبيل إلى الذهاب؟ جاء بعض أفراد العائلة لزيارتنا في ذلك اليوم، ولاحظ الجميع أن هناك

خطبا ما في رجله. في المساء اعترف ابني بالسر الخطير وراء إصابته؛ وهو أن أحد زملائه ركله في رجله المصابة؛ وتحديدا في منطقة المفصل والحوض مما سبب ألما شديدا. بكى وهو يقول إنه صديقه المفضل، وإنه أخفى عني الخبر لئلا أغضب منه أو أطلب منه تجنب اللعب معه.. كم هو طيب هذا الولد!

في الصباح التالي ذهبنا لمركز الأشعة وأخذنا الأشعة التي أظهرت انهيارا تاما في رأس عظمة الفخذ اليمنى. لا حل سوى اللجوء للدكتور «هاني» على الفور. يبدو أن الوقت قد حان. هذا ما حدثتني به نفسي طوال الطريق. قلت لزوجي إنني سأتكلم بحريتي هذه المرة، ولن أسكت كما في المرات السابقة وإن بدوت (سخيفة)! فحص دكتور «هاني» الأشعة بتمعن وفحص الولد وقال:

- يبدو أن الوقت قد حان للتدخل. لقد حاولت إمهاله بعض الوقت لعل وعسى لكن لا مفر الآن.

ـ عفوا دكتورا! كيف سيكون التدخل؟ هل عن طريق الحوض Pelvic osteotomy، أم عظمة الفخذ femoral osteotomy؟

نظر إليّ وابتسم فبادرته قائلة:

ـ لقد أخبرتك مسبقا بأنني درست الحالة جيدا بكل احتمالاتها. أرجوك تحدث معي باستفاضة.

سألته عن الجراحات الأخرى التي تمَّ اقتراحها علينا، لكنه اكتفى بإيماءة من رأسه فهمت منها أن لا طائل من مثل هذه العمليات.

ـ سنضع مثبتا خارجيا!

اقترح المثبت الخارجي، ووجدني أشجعه متلهفة بشدة.

ـ External Fixation إليزاروف؟ نعم، هذا ما أريده تماما. لقد قرأت عن استخدامه في حالات (برتز).

كانت حماستي للجهاز الغامض غير متوقعة. لكن كان جهاز (إليزاروف Illizarov أو المثبت المعدني

الخارجي) هو تخصص هذا الجراح وما يبرع فيه، وكان هذا هو ما أبحث عنه بعد كل ما قرأته من تجارب. لم أثنِّ له كلمة كما نصحني الطبيب السابق وقلت له: نحن معك قلبا وقالبا. شعرت باندهاشه من حماستي وشرح لي ما سيقوم به والفترة الزمنية التي سيظل فيها الهيكل المعدني مثبتا في فخذه الصغيرة. اقترح أن يعطينا فترة للتفكير، لكنني كنت قد حسمت الأمر. كان زوجي يجلس معنا في الغرفة، لكنني كنت صاحبة القرار كما اتفق معي زوجي مسبقا. اقترح الدكتور «هاني» يوما للعملية وتوكلنا على الله. اختار زوجي يوما مناسبا له يستطيع فيه التغيب عن عمله، وتم الاتفاق على يوم الثلاثاء التالي. لم نجادل في أي شيء، وجاء دكتور «مصطفى بركة» مساعد دكتور «هاني». كان شابا في الثلاثين من عمره، وأدركت أنه لا بد أن يكون أحد تلامذة دكتور «هاني» النابهين. شاب دمث الخلق هادئ الطباع كأستاذه. اتفق معنا على تفاصيل الحضور للمستشفى، وأعطانا رقم هاتفه

للمتابعة والاتصال به فور الحضور للمستشفى.

غادرنا العيادة وكأن على رءوسنا الطير. لا مفر إذًا من الجراحة، لكنها أقل الضررين. حانت لحظة المواجهة. لجأت لصديقي محرك البحث جوجل بحثا عن صور المثبت وكيفية تثبيته. يستخدم المثبت المعدني في حالات الكسور الشديدة والمضاعفة. لكن من غير الشائع استخدامه هنا في التعامل مع هذا المرض النادر. كان الجهاز يتكون من هيكل معدني يثبت به بعض القوائم المعدنية عن طريق مسامير تخترق الجلد من خارجه لتنفذ للعظام وتثبتها في مكانها. يكون الهيكل بارزا خارج الرجل، ويمكن رؤية مواضع اختراق المسامير للجلد. كان منظر الجهاز مؤلما بالنسبة إلى زوجي، وقال لي إنه لن يتحمل رؤية الولد في هذا القفص المعدني، وكل هذه الأسياخ تخترق لحمه وعظامه، لكن لم يكن هناك حل آخر. كان المثبت المعدني في نظري أفضل من الجراحة الداخلية في الحوض وكسر عظمة الفخذ وتركيب الشرائح والمسامير وتغيير

التشريح الداخلي للجسم وما يمكن أن يترتب عليها من تلوث ومشاكل، ثم إعادة الكرة مرة أخرى بعد سنة لاستخراج ما تمَّ غرسه من مسامير داخل الجسم.

ـ هل هو قرار نهائي؟ هل أنتِ مقتنعة بالطبيب؟

ـ نعم، إن شاء الله.

ـ هلَّا أخذنا رأيا آخر؟

ـ رأي عاشر؟ محال! سأكمل المسير مع دكتور «هاني»، وليكتب الله له ولنا النجاح.

سبحان الله.. كنت واثقة ومنشرحة. أي رأي آخر وقد سألنا الكثير والكثير من الأطباء؟ إنه الطبيب التاسع في القائمة! ولم تمضِ الليلة دون استخارة وصلاة قضاء حاجة، فيد الله فوق أيديهم.

اقترح طبيبنا موعدا للعملية، وكنت صاحبة القرار المصيري. كان زوجي قلقا ومتهيبا وترك لي زمام الأمور. كانت ثقته الشديدة في حسن تعاملي

مع الأمر ودراسته واتخاذ اللازم أمرا محيرا بالنسبة إليّ. القرار صعب. كنت أحيانا أتمنى التنحي عن القلق بشأن القرار، وأحيانا أخرى أشكر له ثقته المطلقة لأنني إن لم أكن على دراية تامة بكل التفاصيل فلم أكن لأهدأ. مهما كان الإنسان واثقا وآخذا بكل الأسباب يبقَ اتخاذ قرار كهذا أمرا صعبا، خاصة عندما يتعلق الأمر بطفل لا حول له ولا قوة! قرار مصيري سآخذه بالنيابة عنه ولا يملك رده عن نفسه. قرار ـ إن نجح ـ فسيشكرني عليه يوما من كل قلبه، ويظل يدعو لي بعد مماتي، أو ـ إن فشل ـ فسيلومني أشد اللوم على اتخاذه، وربما كرهني وعاش حياته ناقما عليّ لتحكمي في مصيره يوما ما. كانت نهاية الطريق وكان لا بد من المضي قدما، وكنت قائد المرحلة الذي عليه التظاهر بالثقة بينما تزتعد أوصاله خوفا.

كنت وحيدة في رحلتي حملت الهمَّ وحدي من أول يوم، ولم أزعجه في سفره. أخفيت الأمر عنه واعتصرته داخلي، ورسمت وجها هادئا مطمئنا أمام

الجميع. لم يشعر بي أحد، ولم يدرك حجم معاناتي أحد. لمن كنت سأشكو؟ لأمي التي بها من المرض ما يكفيها، أم لخالتي التي فقدتها في أحلك الأوقات؟ وكان الخلاص في الصلاة والاستخارة. صليت واستخرت الله من كل قلبي ليشرح صدري للقرار وللطبيب وييسر لنا الأمر كله. ولم أنسَ (مجموعة الدعم) على الفيسبوك وصديقتي «دونا» التي لم تألُ جهدا في شرح الأمر لي وإسداء النصح لي؛ مثل ضرورة تحضير ملابس واسعة يسهل تمريرها من الجهاز الخارجي الذي سيبرز خارج جسمه لخمسة سنتيمترات على الأقل. لولا أن هداني الله لمثل هذه المجموعة لكنت في حالة يرثى لها. الحمد لله الذي تسع رحمته كل ابتلاء.

في اليوم السابق للعملية كان لا بد من الاتفاق مع المستشفى وحجز غرفة. اتصلت بهم هاتفيا فطلبوا مني الحضور لتأكيد الحجز. ذهبت لتأكيد الحجز لأكتشف أنه لم يكن هناك حجز، وأن الحجز بالوصول في اليوم التالي، وأن من أخبرني بأن

الحجز قد تمَّ عبر الهاتف أخطأ. شخصية مسالمة مثلي سيدخل ابنها غرفة العمليات في اليوم التالي، وعندها ما يشغلها من هموم لم تكن لتعترض أو لتتشاجر. سلمت أمري لله فقد كنت في حالة من السكون والرضا ومعي خطاب دخول المستشفى من الطبيب فلا داعي للقلق.

في الليلة السابقة للعملية جمعت إخوته، وشرحت لهم ملامح المرحلة القادمة. أخبرتهم بالمثبت المعدني وبالعكازات التي سيستخدمها لاحقا. طلبت منهم تفهم شعوره وتحمل كل المشاق وتلبية رغباته قدر المستطاع. لم أنسَ «يوسف» الصغير ذا السنوات الخمس الذي اعتاد الذهاب للسباحة كل يوم، لكنه سيضطر للجلوس معنا في البيت طوال فترة المثبت. بسطت له الأمر وأبدى استعداده لمساعدته. كان علينا الاحتفال والخروج لقضاء وقت ممتع قبل اليوم المشهود. أخذنا «محمد» لتناول العشاء في أحد المطاعم على سبيل الترفيه. كان العشاء الأخير خارج المنزل لكل العائلة

لبضعة أشهر قادمة. كنت قد أشركته معي في القراءة والبحث وبسطت له الأمر، وشرحت له ما هو المثبت الخارجي، وكيف يبدو، وكيف سيمشي به. لا يمكن أن يؤخذ الصغير غدرا ليستيقظ ويجد نفسه مثبتا بهذا الهيكل المعدني! لا بد أن يكون على دراية بكل الأحداث القادمة. التهيئة النفسية لا تقل أهمية عن الإجراء الجراحي.

هداني الله لصفحة جديدة على (الفيسبوك) لهؤلاء الذين يضعون مثبتات خارجية في أرجلهم نتيجة كسور مضاعفة، أو نتيجة عمليات إطالة القامة أو استعدال طول رجل خلقت أقصر من أخرى. كانت الصفحة مليئة بالصور والتجارب والاستشارات. كان ابن التاسعة مهيئا تماما لما هو مقدم عليه في الصباح الباكر. كان صبورا وحمولا ومستسلما.

٨

خطوة للأمام مرة أخرى

في اليوم المشهود؛ الثلاثاء ٢٧/ ١٠/ ٢٠١٥ لم أنم من بعد صلاة الفجر، وجاءتني مكالمة مبهجة من صديقتي السعودية الغالية الدكتورة «ميساء». كانت تحدثني من الحرم المكي، وتقول لي إنها جاءت خصيصا من جدة محل إقامتها لمكة وللحرم المكي تحديدا للدعاء لنا بالتيسير والشفاء. شدّت من أزري وغمرتني بدعواتها الصادقة وكلماتها الطيبة. لم يكن ردي لها سوى دموع منهمرة حبا وتقديرا. ما أجمل الصديق الذي تجده وقت الضيق حاضرا برغم المسافات والقيود. ما أجمل دعوة بظهر الغيب من قلب صادق يشاركك همك ويفكر فيك في غيابك! تعرفت إلى «ميساء» في النادي عندما كانت تقيم في القاهرة وسرعان ما تكونت بيننا صداقة قوية. شخصية حلوة المعشر طيبة القلب. كانت تدرس للحصول على شهادة الدكتوراه في علم نفس الأطفال من جامعة القاهرة. عرفتها منذ سنوات

قليلة لكن توطدت علاقتنا ولم تنقطع الصلة بيننا حتى بعد حصولها على الدكتوراه من جامعة القاهرة مع مرتبة الشرف وعودتها لبلاد الحرمين؛ لاستئناف مهمتها في جامعة أم القرى لتنفع الناس بعلمها.

ذهبنا إلى المستشفى في الصباح الباكر وكان المكان مزدحما للغاية. لم نجد غرفة وقال لنا موظف الاستقبال إن الدكتور لم يشترط وجود غرفة، بل من الممكن الاستعاضة عنها بغرفة للعناية النهارية. اتصل زوجي بالدكتور «مصطفى» وأخبره أن الرعاية النهارية كافية وربما لن نحتاج لقضاء الليل في المستشفى. كانت الرعاية النهارية غرفة كبيرة بها عدد من الأسرَّة تفصلها الستائر وفواصل معدنية. كانت الغرفة ضيقة وكان الانتظار مملا. بدأنا اليوم في الثامنة صباحا. شكرت كل من عرض التواجد معنا من الأهل؛ لأن المكان ضيق ولا حاجة لهم بتكبد مشقةٍ لا طائل منها. لم أعتد طلب المساعدة أو تحميل غيري أي أعباء. جاءت عمة «محمد» الكبرى والصغرى وحاولتا تخفيف الوقت عن

«محمد» حيث طال بنا الانتظار. وفي منتصف النهار فوجئت بصديقتي الصدوقة «نهى» تأتي لتشاركني اليوم الموعود. لقد ساندتني في محنة السفارة، وساعدتني مشورتها بكتابة التظلم للقنصل على التنفيس عن غضبي، وها هي تشد من أزري الآن وتأتي لتخفف عني ساعات الترقب. سعدت بها برغم أنني لم أكن أريد تحميلها ما لا طاقة لها به؛ فالانتظار طويل والمستشفى مكتظ وهي تسكن في الطرف الآخر من المدينة. كم أنا محظوظة بتلك القلوب المحبة وتلك النفوس الصادقة! لم ألقِ باللوم على أي شخص لم يأتِ أو لم يتصل بي في هذا اليوم؛ فالكل لديه من المشاكل والهموم ما تنوء بحمله الجبال.

وفي الثالثة أرسل لنا الدكتور أن استعدوا! كان الجوع قد بلغ من الولد مبلغه، وكان يحلم بكل أنواع الطعام التي طالما رجوناه في السابق أن يأكلها وكان يتمنع ويرفض.

ـ سآكل كل الطعام بعد اليوم. لن أرفض شيئا. هذا وعد!

أخذ على نفسه عهدا ألا يرفض طعاما أبدا بعد الآن، وابتسمت قائلة:

ـ أفلح إن صدق!

ـ نعم، إن صدق! ضحكنا جميعا.

في حوالي الساعة الرابعة طلب الطبيب مني التوجه لغرفة ملحقة بغرفة العمليات مع ابني. دخلت الغرفة التي لا يدخلها أحد وكنت في غاية السعادة؛ لأنني في مكان لا يطؤه إلا الأطباء ومساعدوهم. للمكان رهبته وجلاله. لم أكن قلقة.. سبحان الله! شعرت بأننا في يد أمينة وأن صلوات الاستخارة والدعاء قد أجيبت. قابلني دكتور «هاني» بابتسامته الهادئة التي تمحو أي محاولة للقلق. كان مساعده الدكتور «مصطفى» حاضرا، وتندر الجميع مرة أخرى على تشابه اسم العائلة بين المريض والطبيب الذي ليس فردا من العائلة. قال

لي الدكتور «هاني» إن العملية ستستغرق ساعة. كان «محمد» ثابتا وقويا. كان متقبلا للأمر بصورة أثارت إعجاب الجميع.

بهدوء وثقة ربتُّ على كتف الصغير وابتسمت له ابتسامة مشجعة، وتمنيت لهم جميعا التوفيق وغادرت الغرفة. ما إن أدرت ظهري لهم وأغلق الباب من خلفي حتى تبدلت ملامحي تماما. كنت قلقةً ومتوترة ولم أستطع التحكم في غصةٍ مريرةٍ أمسكت بتلابيب حلقي باستماتة. كلي ثقة بالطبيب والإجراء لكن الأمر شاق والطريق لا تراجع فيه. نزلت إلى قاعة الاستقبال حيث جلس زوجي وأخوه وبدأت في ترقب حركة عقارب الساعة. كنت أعلم تماما خطوات العملية بدقة والأدوات المستخدمة. كنت أغمض عيني فأرى المثقاب والمسامير والأجزاء المعدنية التي ستلازم الصغير فترة من عمره. كم هو ضعيف البنية وكم هم ماهرون! مرت عليَّ ذكريات الأحداث سريعة متلاحقة لاهثة بدءا بأول عرجة والآلام المبرحة التي كان يشكو منها.

أتذكر جيدا كم كان يضرب فخذه الصغيرة من الألم ويقول لي إن هناك ألما شديدا بالداخل لا يمكنه تحديده. كان دوما يقول إنه يتمنى لو أن معه قضيبا معدنيا ليضرب به الألم المزعج، ولم أفهم ما يعنيه وقتها قط.

تذكرت هذه الأحداث وغيرها مرورا بالأطباء الثمانية الذين استشرتهم، وصفحات الإنترنت، وليالي القلق والحيرة، وساعات التخبط، وصلوات قضاء الحاجة والتضرع إلى الله في جوف الليل، والصدقات التي أخرجتها تيمنا بالحديث الشريف: (داووا مرضاكم بالصدقات)، والدعوات الصادقة التي أرسلت لنا بظهر الغيب من كل حدب وصوب، وانتهاء بغرفة العمليات التي حاولت تجنبها قدر المستطاع دون جدوى. وهأنذا أجلس في غرفة انتظار المستشفى وابني في غرفة العمليات بين يدي الطبيب، الذي أرسله الله لنا في أحلك اللحظات لينير لي ظلمة الطريق. يقلل بعض الناس من قيمة صلاة الاستخارة، أو لا يدركون أن صلاة بخشوع

وتسليم تام لله تعالى ويقين واستغاثة بالله لها مفعول السحر. الابتلاء رزق، وكما يحمل ألما ظاهريا يحمل في طياته رحمة لا يدركها إلا من تقبل الابتلاء بقلب راضٍ وتسليم تام بأنه الخير وإن كنا لا نعلم لماذا.

مرت ساعة وجاءتني الممرضة لتعلن انتهاء العملية وأن الدكتور «هاني» يطلب حضوري. لملمت شعاث نفسي واستدعيت ابتسامتي الواثقة من غياهب الجب وصعدت حيث غرفة العمليات. ذهبت وأنا أدرك تماما أنني على أعتاب مرحلة جديدة تختلف كلية عن سابقتها. خطواتي الآن ليست في مفترق طرق أعجز عن تحديد الاتجاه الصحيح الذي أسلكه، بل هي الآن في اتجاه واضح معلوم وطريق طويل بلا شك. المدة الزمنية للمثبت الخارجي هي أربعة أشهر. ظلت كلمات صديقتي «دونا» من (مجموعة الدعم) على (الفيسبوك) تتردد في أذني وأنا أصعد الدرج:

ـ «مهما كنتِ مهيأة للمثبت الخارجي ومهما تقبلتِ فكرته نظريا، إلا أن رؤية ابنك فيه عمليا مشهد مؤلم للغاية!».

دخلت الغرفة الملحقة بغرفة العمليات، واستقبلني الدكتور «هاني» بابتسامته الهادئة المطمئنة. ربما وجدني مضطربة، حتى وإن حاولت التظاهر بالثبات والقوة، فسألني مازحا:

ـ هل يمكنني مساعدتكِ يا سيدتي؟

ـ نعم، سيدي! أنا أبحث عن مريض أجرى له دكتور «هاني» جراحة للتو!

قادني إلى حيث كان يرقد صغيري في غرفة الإفاقة وأخذ يشرح لي ما قام به. لم يكن قد أخذ أيا من مستحقاته المادية بعدُ، ولم يتطرق لها، وكنت محرجة من سؤاله.. هل سيأتي ليتفقده في غرفته لاحقا ليتسنى لنا تقديمها له؟ سألته على استحياء فأجاب أنه سينتظر هنا. تركته وذهبت لأحضر زوجي فمن الأفضل أن يشكره شخصيا. كنت قد

وضعت النقود في ظرف، وكتبت عليه اسم المريض والطبيب وتاريخ الجراحة. جاء زوجي وسلم على الطبيب وشكره بحرارة، وغادرنا بعد الاتفاق على الذهاب لعيادته للمتابعة بعد أربعة أيام.

صعدنا إلى الغرفة الصغيرة التي كان علينا الانتظار فيها لبضع ساعات حتى يستيقظ تماما من التخدير، ويتأكد الطبيب من أن كل شيء على ما يرام. أخبرتنا الممرضة بأن مساعد الدكتور سيمر علينا بعد قليل ليتفقد «محمد». جاءوا ببطلي الصغير وكان يتأوه قليلا بين نوم ويقظة، وهناك بالقرب منه وضعوا مفتاح صوامل أو ما نسميه في مصر (مفتاحا إنجليزيا). نعم، (مفتاح إنجليزي) تماما كالذي يستخدم في ربط أو فك الصوامل ذات الرءوس السداسية أو المربعة. كانت فخذه مغطاة بالكامل بالشاش ولم أرَ المثبت المعدني.

حضر دكتور «مصطفى» واطمأن على «محمد» وأعطاني ورقة بالعلاج المطلوب في الفترة القادمة

من مسكنات للألم ومضاد حيوي ومكملات غذائية لازمة. قال لي أن أبقي ركبته مضمومة للأعلى ناحية صدره في وضع مريح بوضع لفافة تحتها. كان اليوم الثلاثاء وموعدنا يوم السبت في العيادة لنزع اللفافات عن الجهاز والتعرف على كيفية الاعتناء به وتطهير المسامير والجروح. كان الدكتور «مصطفى» هادئا، وسمح الوجه، وخلوقا، وشعر الجميع معه بالراحة ولم يتوانَ أخو زوجي عن سؤاله بالتفصيل عن سر تشابه اسم العائلة، ووجد أنها عائلة مختلفة من مدينة مختلفة. تحدث إليّ الطبيب الشاب وشرح الأدوية ومواعيدها، وما علينا فعله حتى الذهاب للعيادة لنزع الرباط وبدء رحلة العلاج، وتفضل مشكورا بإبداء استعداده للرد على أي استفسار عبر خدمة (الواتس آب) الخاصة به. شعرت بالاطمئنان من فكرة اللجوء إليه عند الحاجة. لقد كان عرضا كريما فكثير من الأطباء لا يعبئون بمتابعة مرضاهم خارج نطاق العيادة. لن أزعجه لكن على الأقل إن حدث طارئ يمكني

الاستنجاد به. شعرت بالأمان والاطمئنان من فكرة التواصل للاستفسار.

كانت الساعة السابعة مساء وطلب منا الطبيب إجراء أشعة جديدة على مفصل الحوض الأيمن بعد تثبيت الهيكل المعدني؛ لنرى كيف سارت الأمور وإرسالها له عبر خدمة (واتس آب) على تلفونه المحمول؛ حيث كان لزاما عليه الانصراف والذهاب للعيادة. مرة أخرى تدلي التكنولوجيا بدلوها ببراعة. غادر الدكتور «مصطفى» وذهبنا لإجراء أشعة جديدة وخيم جو عام من التفاؤل والراحة النفسية. حضر الممرض ونزلنا لمركز الأشعة وتم الأمر، بدت الأشعة مرعبة حيث كانت تبرز من عظمة الفخذ مجموعة من القوائم المعدنية مختلفة الأشكال والأطوال.

سمح لنا الطبيب المناوب بالمغادرة، وحملنا (الرجل الحديدي) وغادرنا إلى المنزل. كان يوما طويلا حيث وصلنا إلى المنزل في الساعات الأولى

من صباح الأربعاء. وجدنا إخوته في انتظاره. كان يعصف بهم القلق بعد يوم كامل من غيابنا في المستشفى. ونظروا له في إشفاق. وصلنا إلى البيت وحمل زوجي «محمد» بمساعدة أخيه الأكبر «عبد الرحمن» ووضعته لينام بجانبي في السرير حتى يتسنى لي متابعته في أثناء الليل. كان المسكن قويا مما ساعده على النوم، وكنا في غاية الإرهاق جميعا. خلد «محمد» للنوم على الفور برغم أنه كان جائعا جدا بطبيعة الحال، إلا أنه آثر النوم أو ربما غلبه النوم بعد هذا اليوم الطويل.

كنت مرهقة وجائعة ومضطربة. لم تكن هذه نهاية القصة بل بدايتها. اليوم بدأت أول خطوة في مشوار ألف الميل، وعليّ أن أكون صابرة وقوية. كنت أتمنى لو أنني أستطيع التواصل مع (مجموعة الدعم) لأخبرهم عن إتمام المهمة وأرسل لهم صورة الأشعة، لكنني كنت خائرة القوى.

استيقظ «محمد» أكثر من مرة خلال الليل. كانت

كل أوضاع النوم تؤلمه بسبب بروز الهيكل المعدني من أعلى الحوض وحتى منتصف الفخذ. حاولت أن أيسر له الاستلقاء على جانبه الأيسر بلا جدوى. كان يتألم وكان منزعجا. لا أنكر أنني لوهلة شعرت بأنني ربما أكون قد أخطأت. كيف لهذا الصغير ضئيل الجسم أن يتحمل هذا الهيكل المعدني البارز لثلاثة أشهر على أقل تقدير؟ كيف سيجلس؟ كيف سيتحرك؟ كيف سيقضي حاجته؟ ماذا فعلتِ بنفسكِ وبابنكِ؟ هل هذا هو الحل الأمثل في رأيكِ؟ وددت لو أنني أستطيع البكاء لكن هيهات؛ ليت البكاء كان حلا!

كان اليوم هو الأربعاء ولن نرى الدكتور «هاني» إلا مساء السبت. عليّ معالجة الأمر بنفسي وتحمل عواقب قراري. مرت الليلة الأولى بساعات نوم متقطعة. كان يستيقظ كل ساعة طالبا مني استعدال وضعية قدمه أو وضع المزيد من الوسائد تحت ركبته. كان ينام على ظهره فقط رافعا ركبته اليمنى للأعلى، وكان عليّ وضع الكثير من الوسائد

تحتها. كان وضعا غير مريح ولكن لا مفر؛ إنها أوامر الطبيب. كانت ركبته تؤلمه، ولكن لم يكن هناك ما يمكن فعله حتى زيارة الطبيب يوم السبت التالي. في الصباح جاء بعض أفراد العائلة لزيارته محملين بالهدايا لإدخال السرور على قلبه. حاول الجميع التخفيف والتسرية عنه. كان مستلقيا على ظهره في السرير خائفا من الحركة أو حتى الجلوس. كانت أولى المشكلات التي واجهتني هي: كيف يمكنني مساعدته على قضاء الحاجة؟ لم يكن يستطيع الذهاب للحمام أو الوقوف على قدميه! كان الأمر صعبا، لكن لم يكن هناك بديل من ايجاد طريقة ما.

قررت أنني لن أزعج الدكتور «مصطفى» باستفسارات بسيطة يمكنني إيجاد رد لها، حتى وإن أبدى استعداده للمساعدة. لم أملك سوى الدخول على (الفيسبوك) والتواصل مع (مجموعة الدعم) في أستراليا. أرسلت لهم صورة الأشعة بعد العملية وسألت «دونا» ملهمتي التي خاضت نفس التجربة

عن الرباط الملفوف، وهل سيبقى حقا هناك حتى يوم السبت؟ وكانت إجابتها بالإيجاب. كانت «دونا» رفيقة دربي في هذه الفترة كنت أسألها في كل التفاصيل، وكانت توافيني بالإجابة عبر الأثير بلا كلل ولا ملل. وبرغم فرق التوقيت بين مصر وأستراليا ونيوزيلندا، فإنني دوما وجدت أحدهم مستيقظا ويحمل معه الإجابة الشافية.

كانت الأيام الأولى صعبة وكان خائفا، إلا أن الأمر بالطبع لم يسلم من التحدي الأكبر وهو ضرورة الذهاب للحمام، وكان عليَّ أن أحمله برفق من تحت إبطيه، وكان الأمر صعبا؛ لأنه لم يكن يستطيع الجلوس مطلقا! كان عليَّ اختراع الوسائل المبتكرة التي تيسر له قضاء حاجته بسهولة دون إحداث فوضى في المكان!

أرسلت للمجموعة على الفيسبوك صورته بعد العملية، وأخبرتني «دونا» بأن اللفائف مهمة جدا لأنها تمنع الجلد من الالتصاق بالمسامير. أما بالنسبة

إلى الملابس فكنت قد جهزت له ملابس داخلية بعد أن قصصتها من الجانب الأيمن، ووضعت بها بعض الشرائط لربطها، كما أشار عليّ أحد أعضاء مجموعة (المثبتات الخارجية). كم أنا ممتنة لهاتين المجموعتين. لقد ساعدني الجميع كثيرا في تجاوز الكثير من العقبات وبثوا فيّ الحماسة والقوة لاستكمال الطريق الطويل. مرت الأيام بطيئة لأن المثبت كان يزعجه، ولم يستطع التأقلم معه في البداية. كان النوم عذابا والجلوس معاناة. وبالرغم من أنه كان مهيأ تماما لفكرة الجهاز وشاهده مرارا وتكرارا، فإن وجوده في جسمه كان أمرا مزعجا. وبدأ في إلقاء اللوم عليّ لاختياري له ورفض الجراحات الأخرى، وفشلت كل محاولات إقناعه بأنه أخف الضررين وأن الجراحات الأخرى كانت ستحدث به جرحا غائرا داخليا وخارجيا.

مرت الأيام بطيئة ومبهمة حتى ذهبنا للعيادة يوم السبت كما اتفق. حمل زوجي مريضنا نزولا من المنزل وصعودا للعيادة. كان الطريق طويلا وكانت

حركة السيارة في الشوارع غير الممهدة أو الوقوف المفاجئ لزوجي لأي سبب يسبب ألما شديدا يصرخ منه الصغير. كان يقول إن اهتزاز السيارة يشعره بأن المسامير تغوص أكثر وأكثر في لحمه. وصلنا العيادة بعد أكثر من نصف ساعة. استلقى على ظهره في غرفة ملحقة بغرفة الاستقبال. لم ندخل هذه الغرفة من قبل. غرفة فسيحة منظمة مريحة للنفس دهنت باللون الأخضر الفاتح. بها مكتبة بيضاء كبيرة ومبرد مياه ومكتب وجهاز كمبيوتر. كان شباك الغرفة كبيرا بعرض الغرفة. زرنا العيادة ثلاث مرات سابقا، ولكننا كنا دائما ننتظر في غرفة الانتظار الرئيسية ولم ندخل هذه الغرفة من قبل.

جاء الدكتور «مصطفى» وطلب منا التوجه لغرفة الغيار أو غرفة الجبس. كانت غرفة الغيار غرفة صغيرة يتم فيها تغيير الضمادات وفك أو تركيب الجبس وما شابه. كان الممرض المسئول هو «عم سيد» فردا آخر في فريق عمل الدكتور «هاني» ترتسم على وجهه علامات الطيبة والألفة. يبدو أن

الابتسامة الهادئة سمة أهل المكان، أو ربما هي الأثر الذي يبثه الدكتور «هاني» في فريق عمله. فك دكتور «مصطفى» الضمادات واللفائف ورأيت الجهاز المعدني لأول مرة مثبتا في فخذ ابني. كنت أدرك تماما أن هذا المشهد سيؤلم أباه؛ لأنه منذ البداية أعلنها واضحةً وصريحةً أنه يمكن أن يترنح من مثل هذا المنظر القاسي، لكنه كان ثابتا ومتعاطفا مع الطفل الصغير الذي لا حول له ولا قوة. تذكرت «دونا» وكلامها عن رؤية المثبت رأي العين وتنهدت.

شرح الدكتور «هاني» لزوجي أنه يجب عليه أن يلف المسمار كل يوم ربع لفة حتى نبدأ في تحقيق الهدف من العملية، وهو رفع السقف فوق العظمة حتى نوفر لها المساحة الكافية لتمكنها من الاستدارة قدر المستطاع عندما يحين موعد نموها مرة أخرى. بعد انهيار رأس عظمة الفخذ تتقلص المساحة بسبب انضغاط العضلات والأنسجة مما يسبب نمو الرأس بصورة مفلطحة تؤدي إلى خشونة المفصل والاضطرار لتغيير المفصل

مستقبلا. الغرض من تركيب المثبت الخارجي هو مساعدة رأس العظمة على النمو باستدارة لتفادي حدوث ذلك. وشرح لي كيفية تنظيف المسامير والجروح بمحلول الملح، وربط أماكن المسمار بشاش نظيف مبلل بمحلول الملح لتجنب تلوث الجرح. كما أعطاني الدكتور «ممدوح» ابنه وأحد أفراد فريق العمل ورقة إرشادية بكل التفاصيل. قابلنا يومها الدكتور «ممدوح»، وعلمت من «عم سيد» أنه ابن الدكتور «هاني» وكان دمث الخلق كأبيه.

كانت مهمة يومية لا فكاك منها وكنت على دراية بها بسبب نصائح «دونا» في مجموعة الدعم، ومعرفتي بالطرق التي اتبعتها وقراءة الكثير من الإرشادات التي وضعت روابط لها. وحدد لنا الدكتور «هاني» أياما ثابتة للمتابعة، وأوصى بإحضار عكازات والبدء في استخدامها على الفور. وشدد على ضرورة القيام بتمرينات محددة للحفاظ على لياقة ونشاط عضلة الرجلين حتى لا تضعف؛

حيث إنها مجبرة على الراحة لفترة طويلة من الوقت.

وقمنا بشراء عكازين صغيرين، وبدأت الرحلة مع العكازين وأصبحت لابني أربع أرجل بعد إضافة رجلين إضافيتين سترافقانه لفترة لا بأس بها من الزمن. في البداية كان استخدام العكازين صعبا، وتذكرت «دونا» عندما قالت لي:

ـ يعتاد الصغار على العكاز بسرعة. لا تقلقي عليه! سيتقن المشي بهما، بل بمرور الوقت ستصرخين فيه طالبة منه أن يهدئ من سرعته!

كانت المشكلة الكبرى التي نواجهها هي عدم استطاعته الجلوس على أي كرسي أو مقعد بدءا من الحمام ووصولا للصالون. كان المثبت المعدني مقوسا مما يعيق الجلوس إلا لو كان الكرسي ذا مواصفات خاصة عجزت عن تحديدها؛ لأنه يرفض كل الأنواع! فما كان يريحه اليوم لا يستطيع الجلوس عليه في اليوم التالي، وإن جلس بالفعل

فبعد أقل من الساعة يبدأ في الشكوى. وبحثت عن مجموعة دعم جديدة لأصحاب المثبتات المعدنية، وقبلوا إضافتي إلى مجموعتهم على الرحب والسعة. كانت هذه المجموعة رائعة في تفاعلها؛ لأنهم جميعا تبرز من مكان ما في أجسامهم مسامير معدنية وهياكل مزعجة بدءا من الوجه، والرسغ وصولا للرجل والحوض. كانوا يضعون صورهم ويتبادلون المعلومات حول تنظيف الجروح وكيفية ارتداء الملابس برغم صعوبتها. رأيت أحد رفقاء الطريق من أصحاب المثبت الخارجي يذكر استخدامه لكرسي يشبه الوسادة منخفض ووثير يغوص المرء فيه. ليس له شكل محدد ثابت، أي أنه يأخذ شكل الجسم مما يساعد على التأقلم. لحسن الحظ كان هذا الكرسي العجيب متوفرا لدى عمته فأحضرته له وكان حلا رائعا. أخيرا تمكن من الجلوس لمشاهدة التلفاز أو ممارسة لعبته الإلكترونية المفضلة (البلاي ستيشن) بدلا من الاستلقاء على جانبه الأيسر أو على ظهره طوال

الوقت.

كان والده يرفض تماما فكرة (البلاي ستيشن) لما لهذه الألعاب من أضرار جسيمة على أعصاب الطفل، فتعلمه الخمول، والعنف، والبلادة، لكن بعد اكتشاف المرض ومعرفتي بما ينتظرنا من أحداث وصعوبة في الحركة كان حلا سحريا يجبره على البقاء في مكان واحد، ويحد من رغبته الجامحة في الحركة. كانت الألعاب محاولة منا للتسرية عنه بعد أن أصبح الذهاب للنادي أو اللعب والجري أمورا في غاية الصعوبة. حاولنا إدخال السرور عليه بشيء يحقق حاجة في نفس يعقوب لا يدركها الصغير، وهي الجلوس وتقليل الحركة اختياريا في فترة ما قبل العملية وإجباريا بعد العملية.

وبدأ روتين يومي جديد بدلا من التوجه لحمام السباحة، وهو تنظيف المسامير والجروح. لم أكن أجد الأمر صعبا ولا تتأذى نفسي من الدماء والإفرازات وما شابه؛ فكنت طبيبته وسعدت بذلك.

كنت عندما يلتبس عليّ الأمر فيما يتعلق بالجروح والإفرازات؛ ألتقط الصور وأرسلها للمجموعة وأنتظر الجواب. كان الدكتور «هاني» قد أعطاني ورقة إرشادات خاصة بتعقيم الجروح وكيفية تنظيف المسامير، وكنت أستطيع استشارة الدكتور «مصطفى» عندما أشك في التهاب المكان، لكنني آثرت عدم إزعاجه طالما يمكنني تصريف أموري. كانت إحدى العضوات ممرضة تعمل في قسم العظام وكانت تجاوب بدقة.

كان يستلقي على السرير، وبعد مهمة لف المسامير التي يقوم بها والده، كنت أرتدي القفازات المطاطية وأجهز الشاش المعقم ومحلول الملح وأبدأ مهمتي. كانت مهمة شاقة؛ لأنه كان يصرخ كلما لمست جلده أو اقتربت منه. لم يكن الأمر مؤلما، بل كان الولد خائفا. كان لا بد من إزالة الدماء التي تجلطت وتنظيف المنطقة المحيطة بالمسمار والتخلص من أي إفرازات ثم لف المكان بشاش مغموس في محلول الملح الذي يمنع تراكم

الميكروبات ومن ثم تلوث الجرح. وفي يوم من الأيام، سأل أحد أعضاء الصفحة عن تلوث الجرح وكيفية العناية به، ورد عليه أحدهم أنه يستخدم الماء الدافئ ودش المياه لأنه يزيل كل العوالق بسهولة بعد أن يبللها الماء.

أعجبتني الفكرة وكانت بداية تغيير طريقة التنظيف، وكانت أسهل وحازت إعجاب (الرجل الحديدي الصغير) كما أصبح لقبه بعد العملية. كان يجلس على طرف غطاء مقعد المرحاض، وأبلل له رجله بدش المياه الفاترة. كانت فكرة مذهلة! لم يعد يصرخ أو يرفض التنظيف. كان الماء يزيح كل الدماء والعوالق وكانت مهمتي هي تنظيف المكان بمحلول الملح ولف الشاش. وبالطبع بعد كل مرة كان الحمام في حالة يرثى لها فكان عليّ تنظيفه بالمطهرات. كنت ممتنة جدا لمجموعتي الدعم ولا أنفك أشكرهما معًا لقبولهما إضافتي إلى المجموعة، بالرغم من بعد المسافة واختلاف الأعراق. كنت سعيدة لعدم وجود حاجز اللغة فإتقاني للغة

الإنجليزية أنقذني في هذه المحنة. لقد استخدمت لغتي في البحث والدراسة وقراءة كل ما يتعلق بمرض ابني، حتى الأبحاث العلمية المتخصصة كنت أقرؤها وأفهمها تمام الفهم. كنت أتواصل مع أصدقائي الجدد أسأل وهم يجيبون، بل أحيانا يسألونني وأجيب بما أعرف من معلومات، أو أرسل لهم روابط تتعلق بالموضوع. كانت هذه هي الإنسانية في أبهى صورها؛ فبرغم اختلاف أعراقنا، ومعتقداتنا، ولغاتنا وبيئاتنا الاجتماعية فإننا اجتمعنا حول معاناة واحدة ومشاكل بشرية واحدة نسعى جميعا لنجد حلا لها. كم هو عجيب هذا العالم، وكم هي مبهرة تلك التكنولوجيا التي أتاحت لنا التواصل وإرسال الصور وتبادل المعلومات فوق البحار والجبال والمحيطات.

ما أزعجني حقا هو قلة المصادر المتاحة باللغة العربية. ماذا لو كنت لا أجيد الإنجليزية؟ ماذا لو لم أستطع الاتصال بهذا العالم الخارجي بكل ما فيه من معلومات وبكل من فيه من أشخاص؟ أين اللغة

العربية مما يحدث في العالم من تقدم؟ لماذا لا توجد مواقع علمية عربية غنية بالمعلومات؟ لماذا لا توجد مجموعة دعم للعرب؟ حتما لست العربية الوحيدة التي يعاني ابنها من هذه المشكلة! كيف أتواصل مع من يريد المساعدة؟ يهتم الغربيون بالموضوع أكثر؛ وهذا ما دفعني لبدء مدونة باللغة الإنجليزية أتواصل فيها مع من يهتم بالمرض ويبحث عن خبرات السابقين.

أما الروتين الأسبوعي فكان الذهاب للعيادة للمتابعة. وأصبحت الغرفة المريحة هي ملاذنا الآمن، لم نعد نجلس في غرفة الانتظار. كان المكان مريحا كأصحابه. كان موعدنا يوم الأربعاء ظهرا فكان الشباك الكبير يدخل نورا مبهجا ينير الغرفة ويزيدها راحة للنفس. ومع تعدد زياراتنا تعددت علاقاتنا الاجتماعية مع المرضى. تعرفت إلى «الحاجة ماجدة» التي كانت تشاركنا تجربة المثبت المعدني. كانت سيدة باسمة نراها كلما ذهبنا. وبمرور الوقت تكونت بيننا علاقة وطيدة، فنحن

نجلس معا ونتبادل أطراف الحديث. حكت لي «الحاجة ماجدة» كيف أنها تعرضت لحادث أليم حيث صدمتها دراجة نارية، وأصيبت رجلها وقدمها اليسرى بكسور مضاعفة حيث كان كاحلها مفصولا عن قدمها. وذهبت لمستشفى حكومي قريب من موقع الحادث، وبعد رحلة علاج استمرت ثلاث سنوات لم تلتئم عظامها وعجزت عن المشي، وبدأت رحلة البحث عمن يجبر كسرها ويرد رجلها لسابق عهدها. وهداها الله بعد طول عذاب لطبيبنا الماهر وقامت بتركيب المثبت الخارجي، وها هي ذي بعد مدة سنتين ونصف السنة من العلاج معه قد تعافت عظامها. كانت تدعو له بالصحة والبركة في كل حديثها. وكنت أتعجب من صبرها حيث كانت رجلها تعاني من قرحة شديدة غائرة لا تلتئم. كنت أشفق عليها كلما رأيت قصبة رجلها المصابة. كانت تشجع «محمد» وتحثه على الصبر وأنه في أيدٍ أمينة لكن عليه الامتثال للأوامر.

بعد أن استقرت الأوضاع إلى حد ما كان عليَّ

الذهاب للمدرسة؛ لأعطيهم خطاب الطبيب الذي يوصي فيه بالراحة التامة وتعذر الذهاب للمدرسة. كانت امتحانات منتصف العام على الأبواب. قابلت مديرة المدرسة وتفهمت الوضع وطلبت مني التوجه لطبيبة المدرسة لإعطائها نسخة من الأشعة وخطاب الطبيب والتقرير الطبي. كان الاتفاق هو غيابه عن الدوام المدرسي، لكن كان عليه الحضور لأداء امتحانات نصف العام.

ـ «قبل بدء الامتحانات عليكِ الحضور مجددا وتقديم طلب لمديرة المدرسة؛ للسماح له بأداء الامتحان في عيادة الطبيب في الدور الأرضي، إن كان يتعذر عليه صعود السلم للدور الثاني محل لجان الامتحان».

كانت هذه نصيحة طبيبة المدرسة بعد الاطلاع على كل المستندات المطلوبة. تمنحه التقارير وخطاب الطبيب شهرا من الراحة، ومن سلطتي إعطاؤه أسبوعين كما لو كان مصابا بالجديري أو أي

مرضٍ معدٍ آخر، بعدها سيقترب موعد الامتحانات الرسمية، وسيبدأ التلاميذ في الغياب للدراسة والاستعداد للامتحانات فلن يكون غيابه مشكلة. الامتحانات قد اقتربت. بدأ الطلاب في الغياب للدراسة بالمنزل، ولم يكن أمر غياب «محمد» عن الحضور اليومي للمدرسة مقلقا. كنا في بداية شهر ديسمبر والامتحانات في آخر الشهر.

شعرت بالراحة بعد ترتيب الأمور الدراسية مع المدرسة؛ فلقد كان في الصف الرابع الابتدائي وهي سنة ثقيلة مكدسة المناهج. كان الهدف هو محاولة النجاح فقط لا غير. لن يحتمل الولد أن يرسب ويقضي صيفه القادم مثقلا بأعباء الدراسة والامتحانات. سيكون الصيف مميزا لأنه سيأتي بعد طول عناء وسنة مليئة بالأحداث الجسام. لن أدع شبح الرسوب وامتحانات الدور الثاني يلاحقنا نحن الاثنين! كان امتحان العلوم العملي بعد أسبوعين، وكان عليه حضوره بطبيعة الحال.

كان من ضمن توصيات الطبيب القيام ببعض التمارين للحفاظ على نشاط العضلة التي ستتعطل لفترة طويلة من الزمن. كان يطلب منه تحريكها وهو جالس للأمام وللخلف، أي ثني الركبة وفردها أكبر عدد ممكن من المرات. كان هذا التمرين متزامنا مع فترات الدراسة القليلة التي حاول فيها الجلوس لسماع شرح بعض المواد أو حل بعض المسائل الحسابية. كان الجلوس أمرا مزعجا بهذا البروز المعدني الذي يصل إلى ٥ سنتيمترات خارج جسده لكن لم يكن هناك مفرا! لم أستطع الاستعانة بمدرس خاص لأنني كنت أجلس معه في أي وضع. أحيانا كان ينام على جنبه الأيسر وأجلس بجانبه أقرأ له دروس العربي أو الدراسات الاجتماعية، أحيانا أخرى كان يستلقي على الكنبة وأشرح له ما تيسر من الدروس، وأحيانا أخرى يحاول الجلوس قليلا ليتسنى لي شرح دروس الرياضيات بالورقة والقلم؛ حيث لا يمكن شرحها شفهيا أو قصها عليه كحكاية يسمعها قبل النوم! كان يتحمل ذلك ساعة أحيانا أو

ربع ساعة فقط لا غير في أوقات كثيرة، فمَن المدرس الذي سيتحمل ذلك؟! كانت الدراسة عبئا لا مفر منه!

واستمر الروتين الأسبوعي كما هو. بعد مرور أسبوعين وفي أثناء جلوسنا في الغرفة كالعادة دخل علينا فتى يكبر «محمد» بحوالي أربع سنوات برفقة أمه، ولاحظت أنه يضع مثبتا خارجيا في الفخذ اليسرى. كان الفتى متألما وحزينا وكانت أمه واجمة. شعرت بالأسى لهما وحاولت تجاذب أطراف الحديث معه؛ لأننا في نفس الظروف وأن الأمر لن يكون صعبا بمرور الوقت، وأخبرته عن مجموعة المثبت الخارجي على الفيسبوك. لكنه كان متألما ولم يكف عن الصراخ عندما دخل الغرفة الأخرى للتغيير على الجرح. أخبرتني والدته أنه تعرض لحادث في أثناء قيادة دراجته النارية، وسقط وكسرت رجله منذ سنتين، وأنه قد أجرى العديد من العمليات وتركيب الشرائح والمسامير، ولكن الشريحة انبعجت داخل الجسم وكانت زيارتهم

للدكتور «هاني» بناء على توصية الكثيرين لإنقاذ ما أفسده الآخرون. تبادلنا أطراف الحديث وغادرا ثم شاهدتهما مرة أخرى في الشارع وكان يمشي بصعوبة متكئا على مشاية مربعة.

وفي إحدى الزيارات للعيادة أخبرني «أمين» سكرتير الدكتور «هاني» أن هناك من يريد التحدث إليّ من خلال تلفون العيادة!

ـ تلفون العيادة! كيف هذا؟ من سيطلب التحدث إليّ عبر هاتف عيادة الطبيب؟

كانت والدة «ياسر» التي قابلتها في المرة السابقة. وكانت تطلب مني أن نكون على اتصال لأنها أعيتها السبل في التعامل مع ابنها، ويرفض الأكل ويبكي طوال اليوم من الألم. لم أمانع بالطبع وأعطيتها رقمي الخاص. ومن يومها أصبحنا صديقتين جمعنا المثبت الخارجي ومعاناة ابنينا. كان «ياسر» يتصل بي وأشد من أزره وأشجعه على تناول طعامه وأداء التمارين، وأولا وأخيرا التحلي

بالقوة والشجاعة. كان بالطبع مفهوم الصبر والابتلاء مبهما بالنسبة إلى الصغيرين، لكن كان لا بد من مؤازرتهما وتشجيعهما على تحمل مشقة ما هم فيه. كان الأمر صعبا بالنسبة إليهما يصعب شرحه ويصعب التعامل معه. كانت هذه هي الصداقة الثانية التي كان المرض سببا في حدوثها. كان «ياسر» في الإعدادية ويرفض الدراسة وحضور الامتحانات. كانت حالته النفسية سيئة. لقد ظل لسنتين متواليتين في هذا العناء الطبي، وأصيب بالملل والإحباط. طلبت مني والدته تشجيعه على الدراسة وحضور الامتحانات. كانت تحضر له مدرسين في كل المواد على أمل تجاوز امتحانات منتصف العام بنجاح؛ فلربما كانت فرحة النجاح سببا في تغيير مزاج العائلة العام. كان يائسا وغاضبا لطول إصابته، ولم أكن أستطيع إلا التعاطف معه والرثاء لحاله أولا، ومحاولة تشجيعه وتحفيزه بتحدي الصعاب قدر استطاعتي.

وعلى الصعيد الآخر غير الطبي وغير الدراسي

لـ«محمد»، كانت الثانوية العامة ضيفا ثقيلا في الانتظار. كان «عبد الرحمن» أخوه الأكبر في الثانوية العامة،وحدث بلا حرج عما تعنيه من همٍّ وقلق لكل بيت مصري عادي، ناهيك عن بيت مثل بيتنا تحيط به الأحداث المضطربة من بين يديه ومن أسفل منه! كان «عبد الرحمن» في قسم علمي رياضة وكان من المفترض أن يلقى كل العناية والاهتمام اللازمين من أمه. الثانوية العامة تعني توفير كل سبل الراحة والهدوء للطالب، لكن في بيتنا وبظروف مرض «محمد» وأمي كان الوضع صعبا والأمور غير مستتبة. كان عليه أن يخوض تجربة الثانوية العامة بمفرده حيث انشغلت عنه أمه بأحمال أخرى. كنت أحاول جاهدةً توفير القدر الكافي من الهدوء، لكن هيهات. كانت بعض الأيام تعج بالقلق والتوتر وكنت أفقد السيطرة على أعصابي في كثير من الأوقات.

كان «يوسف» الصغير في الخامسة، وحرم بطبيعة الحال من الخروج والانطلاق في النادي

بسبب «محمد». كان في بعض الأحيان متقبلا للأمر، وفي أحيان أخرى يتذمر ويشد «محمد» من يده طالبا منه الوقوف واللعب معه أو مطاردته في أرجاء المنزل كما اعتادا. «محمد» فتى هادئ الطباع، لكن مع مرور الوقت وطول فترة الجلوس بالمنزل والتقيد بالجهاز المعدني، بدأت ألحظ تغييرا غير محمود في سلوكياته. أصبح عصبيا يثور لأتفه الأسباب، أحيانا يصرخ، وأحيانا يتجاوز في الكلام معي. كنت أدرك تماما أنه يمر بحالة نفسية سيئة، وأن غيره من الأطفال في مجموعة الدعم يخضعون لعلاج نفسي أو لرعاية نفسية لائقة حتى تمام اجتياز المحنة. لم يكن ذلك متوفرا فكان عليّ تقمص دور الطبيب النفسي وإضافة هذا الدور إلى قائمة الالتزامات اليومية.

بعيدا عن الدراسة والكتب، كان أكثر ما يضايقه هو عدم استطاعته رؤية القطة التي يحبها، والتي أنجبت في فترة غيابه عن حديقة المنزل. كان يحب هذه القطة وينتظر صغارها بفارغ الصبر. كنت ألمح

في عينيه نظرة الضعف وقلة الحيلة عندما يسمع صوت أطفال الجيران يلاعبون القطة، بينما هو جالس بالأعلى وحيدا مكبلا بقيود حديدية مزعجة. وذات صباح استيقظ على مواء ضعيف. جهزت له أخته «يمنى» مفاجأة سارة وأحضرت له الهرات الصغيرات ليراها. كانت فرحته كبيرة وجلست القطط على رجله في استكانة، بينما ربت على شعرها الناعم. كانت تحضر له القطط الصغيرة كل يوم، وتحسن مزاجه لذلك.

ومع شدة تركيزي واهتمامي بـ«محمد»، تقلص دوري في متابعة أخيه طالب الثانوية العامة. كان كل ما أستطيع القيام به هو توفير النقود اللازمة للدروس اليومية، والتأكد من أن الطعام جاهز في الوقت المناسب ليأكل وينام قليلا ثم يستأنف دروسه. فوضت أمري لله واستودعته الله، فليس في الإمكان أن أوليه اهتماما أكثر من هذا؛ فيومي مشحون بين «محمد» وبين أمي. واستوعب «عبد الرحمن» الأمر وعمل في صمت بلا تذمر.

وتوالت الأيام والأشعات حتى أخبرنا الدكتور «هاني» يوما بعد حوالي شهر التوقف عن لف المسامير. ومع مرور الوقت بدأ ابني في الضجر والغضب. كان يشكو من الملل صباح مساء. فشلت كل محاولاتي للترفيه عنه، أحضرت له الكتب والألوان والأوراق ومكعبات (الليجو) التي يعشقها. أحضر له الأصدقاء هدية لعبة (ميكانو) المليئة بالمسامير والهياكل المعدنية الصغيرة التي تشبه ما بجسده الصغير. انشغل بتركيبها تارة، وتذمر من الضجر تارة أخرى. تغيرت حالته المزاجية وبدأ يغضب بسرعة ويرتفع صوته بالصراخ عندما لا تتم تلبية رغباته على الفور. كان يشعر بالعجز والحاجة للآخرين. كنت أشفق عليه لكنني كنت أتحمل الكثير والكثير من المهام بخلاف رعايته كطفل صغير يعتمد عليّ تماما في كل تفاصيل حياته. حاولت التخفيف عنه وأشركته معي في قصص مجموعات الدعم ومنشوراتهم. كنت أريه الصور التي يرسلونها لأنفسهم أو لأطفالهم الذين يخوضون نفس التجربة.

كان متفاعلا معهم وكان عزاؤنا أنه ليس وحده بل هناك من يشتركون معه في نفس المعاناة. وعندما شكوت لهم من حدة مزاجه وتعكره؛ أشاروا عليّ بضرورة الترفيه عنه خارج المنزل وأنه لا ضرر في ذلك. عرض عليه ابن خاله الذي يسكن معنا في نفس البناية أن ينزل ليشاركه اللعب، ووافقت شريطة مرافقته وزيارة أخي وزوجته. وحملته للأسفل وأمضى بعض الوقت السعيد، وعندما حانت لحظة المغادرة اختل توازنه بالعكاز وسقط صارخا على الأرض. مادت بي الأرض وقتها! لقد سقط! ماذا عن الجهاز؟ هل أفسدت هذه السقطة العملية؟ هل تحركت المسامير من مكانها؟ حملته صاعدة إلى البيت. تفحصته جيدا لا توجد دماء على ملابسه أو جلده. الحمد لله معنى هذا أن المسامير لم تتحرك من مكانها.

ـ هل تشعر بالألم يا «محمد»؟

ـ لا.

هذا مؤشر جيد. لكنه كان يبكي خوفا.

لم أجد سوى مجموعة المثبتات الخارجية هرعت إليها لأخبرهم بما حدث. طمأنوني بأن لا داعي للقلق، وأنه طالما لا توجد دماء فلم يصبه مكروه. أخبرني أحدهم بأنه سقط يوما وأفسد الأمر، وكان عليهم تثبيت المسامير من جديد. حاولت الهدوء والصبر حتى زيارة الطبيب في الموعد القادم. كانت أعصابي متوترة ولا تحتمل المزيد من المفاجآت. أرسلت استفسارا للدكتور «مصطفى» وجاء رده سريعا، وطمأنني أن لا داعي للقلق! وفي يوم من الأيام وجدت تعليقا من عضوة تحمل اسما عربيا.

كانت مجموعة الدعم مغلقة للأعضاء فقط. أثار اسمها العربي فضولي فهذا أول اسم عربي في المجموعة؛ فدخلت على صفحتها لأعرف المزيد عنها. يا لدهشتي عندما وجدت أنها مصرية، بل عرفت من خلال صفحة الفيسبوك الخاصة بها أنها تسكن قريبا مني. لم أتمالك نفسي ووجدت نفسي

أرسل لها رسالة خاصة بعيدا عن المجموعة. عرفتها بنفسي وكيف أن اسمها العربي أثار فضولي؛ لأن كل المجموعة من الأجانب. أكدت لها أنني على أتم الاستعداد لمساعدتها في أي شيء. جاءني رد «غادة» سريعا مرحبا، وعلمت أنها تسكن بجواري. سبحان الله.. تفصلنا شوارع قليلة وجمعتنا مجموعة في أقصى الأرض! إنها التكنولوجيا المذهلة مرة أخرى. علمت منها أن ابنها في المرحلة الأولى للمرض، وهي مرحلة التفتت. وتحدثنا تلفونيا وتقابلنا عدة مرات. أصبحت أنا و«غادة» صديقتين منذ ذلك اليوم.

وجاء موعد امتحان مادة العلوم العملي، واصطحبته للمدرسة بعكازيه الصغيرين، وبالطبع لم يستطع ارتداء ملابس المدرسة لتعذر مرور البنطلون من المثبت المعدني. لم يتعدَّ الأمر ساعة، وكان الكل متعاونا معنا في المدرسة. وصلنا للمدرسة في الموعد المحدد واصطحبته مدرسة العلوم للمعمل للتعرف على العينات موضع الاختبار،

وتفضلت مشكورة بمرافقته مرة أخرى حيث جلست في انتظاره في صالة الاستقبال في المدرسة. لم يستطع أحد من المدرسين كتم اندهاشه من المثبت المعدني. كانت هذه هي الحالة الأولى التي تمر عليهم. حتى طبيبة المدرسة قالت في استغراب:

ـ عملت طبيبة مدرسية لعشرين سنة من عمري، وهذه هي الحالة الأولى التي أراها لهذا المرض الغريب. أعانكِ الله يا سيدتي!

غادرنا المدرسة وسرعان ما بدأت امتحانات منتصف العام، وقام بأدائها في عيادة الطبيبة في الدور الأرضي. لم يقابل أيا من زملائه بطبيعة الحال. وبدأت إجازة منتصف العام لترفع عن كاهلنا نحن الاثنين عناء الدراسة وشرح المناهج المكدسة.

لم يكن «محمد» المريض الوحيد المنوط بي رعايته، فقد كانت أمي هناك هي الأخرى في انتظار رعايتي النفسية والجسدية لها. كانت أمي تعاني من

ضعف في العضلات احتار الأطباء في تفسيره. هناك من فسره بضعف الأعصاب بسبب مرض السكر، وهناك من فسره بفيروس أصاب العضلات بالوهن، بينما ذهب آخرون إلى أنه مرض مناعي مفاجئ. تعددت الآراء والضعف واحد. بدأ الضعف بعضلات اليدين والرجلين. كانت تمشي بصعوبة وتجلس بصعوبة ولا تقدر على الوقوف بعد جلستها إلا بمساعدة شخص، ثم أصبحت تحتاج لمساعدة شخصين حتى تتمكن من الوقوف والجلوس. أما المشي فتطور من الاستعانة بعصا إلى الاستعانة بمشاية ذات أربع أرجل، ثم تدهور الأمر لصعوبة التحرك تماما. رفضت أمي اللجوء لاستخدام كرسي متحرك. أمي شخصية قوية وامرأة مثابرة، وكان الابتلاء شديدا لمن هم في مثل شخصيتها المتقدة التي كانت مفعمة بالنشاط والحركة. بين عشية وضحاها أصبحت حبيسة المنزل لا تغادره إلا للضرورة القصوى، وهي زيارة الطبيب أو إجراء الأشعة. وأصبح القيام بأقل متطلباتها الشخصية

ضربا من المستحيل. امتد ضعف العضلات لعضلات اليدين؛ فأصبحت لا تقدر على تصفيف شعرها أو ارتداء ملابسها أو القيام بضرورات المتطلبات البشرية، وكنت أسكن فوقها وتعتمد عليّ تماما في جُلِّ أمرها بالإضافة إلى الجليسة المساعدة.

كانت مشقة بدنية ونفسية عليّ. كان عليّ الإنصاف بينهما بينما كنت أرى أن الصغير وحيد لا يوجد من يقوم بمتطلباته إلا أنا، بينما هي لديها من يساعدها وأبي في خدمتها هو الآخر إلا أنها كانت تطلبني أنا. كانت نفسي الأمارة بالسوء تدفعني للتذمر في بعض الأحيان، ولكن سرعان ما أستغفر ربي وأشفق على أمي المسكينة. كنت أغرق في بحر الالتزامات وكان الضغط شديدا عليّ لأنني أم لأربعة، وطبيعة عمل زوجي تجعله يغادر في الصباح الباكر ويعود في آخر اليوم بعد أن ينقضي اليوم بطلباته ومشاكله. كنت أعذرها فهي ترى فيّ امتدادا لها، وتدرك تماما أن شخصيتي تشبهها كثيرا فيمكن الاعتماد عليّ في قضاء المهمات خارج

المنزل كما لو كانت هي من تدير الأمر بنفسها.

بعد مرور ثلاثة أشهر تقريبا، لاحظت ظهور بعض البثور على وجهه وظهره. اشتكى لي من شعور الحكة المؤلم، وفحصت جسده بمزيج بين الضحك والاستنكار. لا يمكن أن يكون هو ما أعتقد! لا يمكن! هل يمكن أن يصاب بالجديري وهو في هذه الحالة؟! وكان لا بد من الاستعانة بطبيب أطفال حيث أكد لنا إصابته بالجديري. كنت لا أعلم هل أضحك، أم أرثي لحاله! انتشرت البثور في أنحاء جسده ولم تسلم فخذه المعدنية من بعض البثور التي تناثرت هنا وهناك بين فتحات المسامير التي تبرز من فخذه وتخترق عظامه الصغيرة، وجلده الحائر بين بثور الجديري وجروح المثبت المعدني. تقبل الولد الأمر بصدر رحب أحيانا، وتذمر مستحق أحيانا أخرى. وضُرب جدار من العزلة الإجبارية مرة أخرى خشية العدوى. والتقط أخوه الصغير العدوى بطبيعة الحال، وامتنعنا عن زيارة الدكتور «هاني» والمتابعة لثلاثة أسابيع.

كانت مفارقة مضحكة لكل من يعرف بأمر الجديري.

من أين أصابته العدوى وهو لا يذهب للمدرسة، ولا يلتقي بأطفال آخرين؟

ـ ربما أخوه هو من حمل العدوى وأحضرها معه من المدرسة.. ربما!

ومر شهر وراءه شهر وبدأنا في التأقلم مع الوضع وترتيب الأمر روتينيا. الأشعة المتكررة وزيارة الطبيب والدراسة قدر المستطاع في المنزل. كنت أحاول جاهدة التوفيق بين التزاماتي نحو كل من حولي، وكنت أضغط نفسي وأدور في دائرة مفرغة بلا توقف. وكانت امتحانات الثانوية العامة تقترب شيئا فشيئا. بدأ «عبد الرحمن» يشعر بالقلق والاضطراب، ويحتاج لمن يبث الثقة فيه ويطمئنه. استودعته الله في خضم ما نمر به، وكان «عبد الرحمن» يشبهني، كان يدرك الوضع ويعي المسئولية الجسيمة الملقاة على عاتقه، وكان يعمل

في صمت. يذهب لدروسه ويقوم بواجباته. كان الدعاء له بالتوفيق هو كل ما أستطيع عمله، فأحيانا لم أملك حتى الوقت الكافي لسماع شكواه!

أما «محمد» فقد بدأ يشعر بالملل الشديد وفشلت كل محاولات الإلهاء، وبدأت في التفكير في أساليب جديدة للتسرية عنه. فتحت صفحة الفيسبوك لأجد إعلانا عن مسابقة رسم للأطفال. أحد متاجر الأثاث الأوروبية الشهيرة يعلن عن مسابقة رسم للأطفال لتصميم دمية محشوة. سيشارك كل الأطفال برسومات للدمى وستعرض الرسومات للتصويت. الرسمة الفائزة سيقوم المعرض بتصميمها مجانا للطفل وتكريمه. يا لها من فكرة رائعة! اختمرت الفكرة في رأسي. «محمد» يحب الرسم، وربما ستسهم هذه الأحداث المثيرة للمسابقة في تحسين حالته المزاجية. عرضت عليه الأمر. أعجب بالفكرة جدا وقرر المشاركة، وبالطبع لم أنسَ «يوسف» الصغير. طلبت منه الاستعداد والتفكير في رسمة مناسبة لدمية محشوة حتى لا

يضيع الوقت هناك في التفكير. نجحت في تشجيعه على الإبداع، وانهمك هو وأخوه الصغير في الرسم والتفكير في أشكال مختلفة ومميزة للدمى يسهل تصميمها.

في اليوم المحدد للمسابقة اصطحبتهما للمتجر الشهير، وكان المكان مهيئا لاستقبال المبدعين الصغار. وجد صعوبة في الجلوس على المقاعد الصغيرة بسبب هيكله المعدني البارز، لكن يبدو أن حماسته للمسابقة أنسته كل الآلام والإزعاج الناتج عنه. تفهم العاملون وضعه بعكازيه الصغيرين وساعده الجميع على اختيار مكان مناسب للجلوس. رسم دميته وسلمها لفريق العمل بعد كتابة اسمه وسنه. أخبرنا الفريق أن بعد الانتهاء من جمع كل الرسومات المشاركة وفرزها سيتم تحميلها على الموقع الإلكتروني للمتجر في القسم الخاص بالمسابقة، وستعرض كل الرسومات للتصويت. الفائز هو من ستحصل رسمته على إعجاب الجماهير، والتي ستكون الأعلى تصويتا. تابعنا

الأخبار على الموقع، ولفرحته العارمة وجد رسمته في التصفيات النهائية. رسم حبارا لطيفا تخيله دمية محشوة فلاقى استحسانا منه ومنا؛ لأننا لم نرَ دمية محشوة في هيئة حبار من قبل. بدأت الحماسة وانطلق التصويت.

قمت بمشاركة خبر المسابقة مع كل الأصدقاء في صفحة الفيسبوك الخاصة بي، وتحمس الجميع للرسمة الخاصة بـ«محمد». كنا نتابع أخبار التصويت كل يوم، وكان «محمد» في غاية السعادة كلما حصل على صوت جديد. كانت الأصوات تزيد في يوم لرسمة ما، ثم في اليوم التالي تتفوق رسمة أخرى لطفل آخر وهكذا. اشتدت المنافسة وعلت وتيرة الأحداث.

كنت أتابع الأرقام وتوقعت عدم فوزه لتفوق رسمة أخرى بعدد لا بأس به من الأصوات. ربما صوَّت لهذا الطفل أهل الحي كلهم!

ـ لا يهم يا «محمد». شرف التجربة يكفيك. لقد

رسمت رسمة جميلة حازت إعجاب أكثر من ثلاثمائة شخص وهذا رائع!

احتلت المسابقة وأحداثها أسبوعين من الوقت ذهب فيه الملل وتلاشت أسباب الغضب، لكن مع انتهائها عدنا ثانية لمرحلة الفراغ واللاوجود. لم يحزن لعدم الفوز؛ لأنه أحب الرسمة الفائزة ورآها أحلى من رسمته. تقبل الأمر بصدر رحب وكذلك فعل أخوه الصغير. ربما فرح بمجرد المشاركة والوصول للتصفيات النهائية. شعر بأنه قادر على خوض سباق باقتدار، لكن سرعان ما عاد للشكوى من الملل.

نصحني أعضاء مجموعة الدعم باصطحابه خارج المنزل. كنت أخاف من الفكرة. كانت فكرة السقوط ترعبني، ولم أكن أثق في تمكنه من استخدام العكازين في شوارعنا وطرقات المدينة. لكن كان لا بد من المحاولة. لن يجلس في البيت كل هذه الشهور. استجمعت قوتي وعملت بالنصيحة.

كان الآن يستخدم العكازين بطلاقة؛ مما سهل علينا محاولة الخروج خارج المنزل. كنت أحمله من تحت إبطيه حتى ينزل السلالم بأمان ثم ينطلق. أصطحبه إلى النادي، أو المطعم، أو المراكز التجارية أحيانا، لكنه كان متململا مع كل ذلك. اتسمت كل تصرفاته بالعصبية والتذمر وكان عليَّ احتواء الأمر رغما عني. لم يكن يرضيه شيء. تغير ابني الوديع إلى كائن متذمر عصبي كثير الشكوى. كان عليَّ تقبل الأمر رغما عني، وتفسير التغاضي عن بعض التجاوزات أمام أخيه الصغير الذي كان يتابع ردود أفعالي عن كثب في محاولة لتقليده.

وكنت أشكو لأصدقاء المجموعة وأجدهم يعانون من نفس المشكلة مع أولادهم. وكنت أتابع من قاموا بعمليات جراحية مما رفضتها، وأحمد الله أنني لم أخترها. كان الأطفال طريحي الفراش لفترات أطول، وكان فرق الطول الناتج عن العملية محزنا، وحمدت الله أنه وفقني لاتخاذ إجراء آخر. كانت المجموعة تتحول لاحتفال كبير عندما يزف

أحدهم لنا بشرى تعافي ابنه أو ابنته. تنهال التهاني وتنتشر القلوب الحمراء وترتفع أصابع الإبهام تشجيعا. ما أسعد هذه اللحظات التي تبث الأمل، وتحفزنا على المضي قدما للنور الموجود في نهاية النفق.

وعاد بي الزمن وبـ«بمحمد» إلى فترات طفولته الأولى فعاد صغيرا يعتمد عليّ في كل شيء، ونسيت أن أخاه الصغير ما زال هناك في حاجة لرعايتي. لم أكن أرى غيره، وكنا جميعا ندور في فلك خدمته ورعايته، حتى أخوه الصغير الذي يصغره بأربعة أعوام أبلى بلاء حسنا في اللعب معه وخدمته قدر استطاعته.

وبالأسفل حيث تعيش أمي، كان الوضع يزداد سوءا، فلم تكن راضية عن أي ممن يأتون لخدمتها ومساعدتها من الجليسات، وتوالت علينا الجليسات واحدة تلو الأخرى. كان الحصول على كل المواصفات التي ترضيها أمرا صعبا بل شبه

مستحيل؛ فقد كانت معاييرها دقيقة كما لو كانت تنتخب فردا سينضم للعائلة لا من يساعدها في قضاء شئونها الخاصة. أحيانا لم نملك رفاهية الاختيار، وكان علينا التضحية ببعض المواصفات وتقبل ما لا نقبله في الأحوال العادية. وكانت هناك فجوات بين مغادرة إحداهن والعثور على بديل مناسب، وكنت أنا من يسد الفجوات في خضم كل ما أمر به. كان والدي يساعد قدر استطاعته، وأختاي كذلك. لكن لكل ظروفه، واحدة منهن أم يستهلك أطفالها جُلَّ طاقتها ووقتها، وعندما تصطحبهم تقضي الوقت في خدمتهم، والأخرى كانت حاملا في الشهور الأخيرة؛ لذلك ونظرا إلى أنني المقيمة في المكان فأنا تحت الطلب بطبيعة الحال على مدار اليوم.

منذ بداية إجازة منتصف العام أصبح «يوسف» الصغير ملازما لأخيه صباح مساء. بدأت في التفكير في إمكانية الذهاب للنادي للترفيه عنهما. جاءت أختي «هالة» وأولادها وشددنا الرحال يوما إلى

هناك. كان الجو مشمسا ولطيفا وكانت الأشجار مبهجة، لكن «محمد» حاول الجلوس ولم يستطع! حملت معي وسادة صغيرة لتسهل عليه الجلوس على مقاعد النادي البلاستيكية، لكن لم يستطع الجلوس لأكثر من ساعة. كان يرى الجميع يجري ويلعب وهو مقيد وعاجز عن كل شيء بما في ذلك مجرد الجلوس على الكرسي والاستمتاع بأشعة الشمس الدافئة! فشلت كل محاولات الاتفاق المسبق مع الأولاد في الجلوس بصحبته والتناوب على اللعب حتى لا يجلس وحيدا. فبمجرد وصولهم نسوا كل الاتفاقات، واختفى كل في وجهته وجلس هو وحيدا يرقبهم من وراء قضبانه. كان حزينا ولم أملك سوى الانصراف والعودة للمنزل!

شكوت همي لأعضاء المجموعة الذين نصحوني بعدم الاستسلام وبمحاولة اصطحابه مرة أخرى للخارج برفقة أصحابه وأولاد خالته. فكرت في حل آخر وهو اصطحاب الجميع لتناول الطعام في أحد المطاعم التي يحبها الصغار، ورحب بالفكرة على

مضض. أكدت له أن المقاعد هناك من الجلد، وسيكون من السهل عليه الجلوس عليها بزاوية ترضيه. لن يستغرق الأمر أكثر من ساعة.

شددنا الرحال واستمتع الأطفال بالطعام وكان اختيار المطعم موفقا ومريحا بالنسبة إليه. وتتابعت أيام الإجازة بين زيارات منزلية من صديق مقرب له في المدرسة وبين زيارات أولاد خالته وخاله. وانتهت إجازة منتصف العام بحلوها ومرها. وبعد انتظام الدراسة بأسبوع كان عليّ الذهاب مرة أخرى للمدرسة لاستلام كتب النصف الثاني وتجديد الإجازة المرضية. ذهبت لمقابلة المديرة التي رحبت بي كالعادة، لكنها رفضت تجديد الإجازة دون وجود شهادة جديدة من التأمين الصحي! ذهبت لطبيبة المدرسة للاستفسار فقالت لي إنه لم يعد بإمكانهم تجديد الإجازة أكثر من ذلك.

هناك طبيب منتدب من التأمين الصحي يأتي للمدرسة يوم الأحد من كل أسبوع. تعالي لمقابلته

لمعرفة المزيد، وأحضري معكِ كل الأشعة والتقرير الطبي.

ـ ما زال أمام الولد الكثير من الوقت لنزع الجهاز. لن يستطيع المجيء للمدرسة وحضور النصف الدراسي الثاني.

ـ لا حل لديَّ للأسف سوى انتظار دكتور «نبيل» يوم الأحد.

مرَّ عليَّ الأسبوع كئيبا في انتظار يوم الأحد المزعوم. لم أكن أتخيل قط أن غياب طفل في الصف الرابع الابتدائي يمكن أن يشكل مشكلة. وجاء يوم الأحد وذهبت لمقابلة الدكتور «نبيل» في المدرسة.

ـ صباح الخير دكتور «نبيل».

ـ صباح الخير سيدتي.

ـ أنا والدة «محمد» في الصف الرابع صاحب المثبت المعدني.

- نعم، أخبرتني دكتورة «نسرين» بالأمر. هل يمكنني الاطلاع على الأشعة؟

اطلع الدكتور على الأشعة، ونظر لي ثم قال:

- لا أملك سوى إعطائه أسبوعين فقط لا غير. ليس من سلطتي أكثر من ذلك. عليك مقابلة الدكتور «لطفي» المسئول عن التأمين الصحي لطلبة المنطقة التعليمية التابعة لها المدرسة للوصول إلى حل طالما تريدين غياب التلميذ لشهرين أو أكثر!

لملمت أوراقي وذهبت للدكتور «لطفي» في مكتبه في إحدى المدارس الحكومية القريبة في المنطقة. لحسن حظي وجدته موجودا بمكتبه. اطلع على كل ما أملك من إثباتات، وأخبرني بأن لا مفر من الذهاب لإدارة التأمين الصحي لاستخراج إجازة مرضية معتمدة بشهرين من الغياب! وتفضل مشكورا بالتأكيد على ضرورة اصطحاب الولد معي لتفحصه اللجنة الطبية هناك!

- يا دكتور كيف أصطحبه وهو نائم على ظهره

أغلب الوقت؟ هل من المنطق أن تطلب اللجنة رؤيته وهو على هذه الحال؟

ـ هذا هو القانون يا سيدتي!

ـ أي قانون هذا؟ هل أدعي على ابني المرض؟ هذه الأشعة خاصة به، ورآه كل من في المدرسة في امتحانات نصف العام. أنا لا أكذب، وها هو خطاب الطبيب يوصي بعدم الذهاب للمدرسة؛ لما يشكله هذا من خطر عليه!

ـ لا أختلف معك، لكن هذا هو القانون. عليك أولا تجديد بطاقة التأمين الصحي على الطلاب، ثم الذهاب إلى هناك مع الولد والأشعة وكل شيء!

وسط ذهولي قمت بتجديد بطاقة العلاج الطبي من نفس المكان، ولحسن حظي كانت معي صورة شخصية للولد. غادرت وأنا لا أعرف أأبكي، أم أضحك رثاء لحالي! كيف سأصطحب الولد لهيئة التأمين الصحي في مدينة نصر؟ كيف سأذهب إلى هناك بعكازيه؟ كيف سيتمكن من المشي وصعود

السلالم هناك؟ كيف أصطحبه في مصلحة حكومية وهو في هذا الوضع؟ اتصلت بـ«فاطمة» صديقتي التي تعمل في مصلحة حكومية مرموقة لأستفسر منها عن صحة الكلام. أكدت لي أن هكذا تسير الأمور مع التأمين الصحي لاعتماد إجازة حكومية!

ـ يا «فاطمة».. إنه طفل في الصف الرابع الابتدائي وليس موظفا حكوميا سينقطع عن العمل! لا يأخذ أجرا ولا راتبا لكل هذه التعقيدات!

ـ سأحاول الاتصال بصديقة أخرى لمعرفة صحة هذا الكلام، وهل هو تعنت من الطبيب، أم هو قانون سارٍ على الكل؟

بعد مرور ساعة عاودت «فاطمة» الاتصال بي.

ـ لا مفر! أكد لي الجميع أن هذا هو الإجراء المتبع للأسف! يجب عليكِ اصطحاب الولد والذهاب؛ حتى لا يفقد درجات أعمال السنة، وحتى لا تحدث أي مشكلة. أعانك الله على هذه الرحلة!

وفي صباح اليوم التالي لم يكن هناك مفر من شد الرحال من القاهرة الجديدة إلى هيئة التأمين الصحي في مدينة نصر. جهزت كل الأشعات والتقارير وكانت حملا ثقيلا في ذاتها. لم أعتد الاستعانة بأحد بل قضاء شئوني بنفسي؛ فلكل واحد ما يكفيه من مشاغل. لم أخبر أحدا وحملت صغيري على السلالم وأجلسته في السيارة، ثم صعدت مرة أخرى لإحضار الأشعة والتقارير التي باتت هذا اليوم أثقل من المعتاد وأكبر حجما! وصلنا لهذه البقعة المكتظة بالبشر، وكما توقعت تعذر الحصول على مكان مناسب قريب من المبنى أستطيع فيه صف السيارة بحيث لا يمشي الولد لمسافة كبيرة على الأرصفة غير الممهدة بين طوفان البشر الهادر هناك. ليتني استقللت سيارة أجرة! كان هذا حلا ظاهره الرحمة وباطنه العذاب، فالعثور على سيارة أجرة حيث نسكن في هذه المدينة الجديدة أمر ليس بالسهل، والعثور على سيارة أخرى في طريق العودة تقبل الذهاب للقاهرة

الجديدة من مدينة نصر ليس بالأمر الهين. من المؤكد أنني سأقف للانتظار، ولا يمكن للصغير الوقوف في الشارع للانتظار بعكازيه طويلا.

ظللت أحوم حول المبنى حتى استطعت أخيرا العثور على مكان مناسب أصف فيه السيارة. كان المكان بعيدا لبضعة أمتار عن مدخل المبنى لكن لم يكن هناك بديل! بدأت الرحلة. أنا أحمل الأشعة الضخمة بيد وأحاول مساندة ابني باليد الأخرى. وصلنا للمبنى الذي يرتفع ببضع درجات عن مستوى الرصيف! ما هذه الهندسة؟ من المهندس الذي صمم هذا المبنى؟ لماذا لم يضع في حسبانه أن المترددين عليه سيكونون معتلي الصحة، ووجود هذا العدد من الدرجات التي عليهم صعودها أمر مستحيل للبعض وصعب على البعض الآخر! أفٍّ لهذا الروتين القاتل! بداية غير مشجعة! يعلم الله كم عدد الأدوار التي علينا صعودها بالداخل! حاول الصغير الصعود بعكازيه، ولم أستطع حمله من تحت إبطيه ورفعه كما اعتدت بسبب الأشعة الضخمة التي أحملها

معي! السلالم مكتظة بالبشر الذين يتدافعون خارجها دون وعي أو إدراك بوجود من يأتي في الاتجاه المعاكس دخولا لنفس المكان الذي يخرجون منه! الكل واجم وفي عجلة من أمره. يحمل الكثير منهم مظاريف الأشعة الكبيرة بينما يحمل آخرون الأوراق. بعد محاولة يائسة لصعود أول درجة، تفضل أحدهم مشكورا بمساعدة الصغير وحمله للأعلى. شكرته بشدة ودعوت له بأن يكرمه الله جزاء كرم أخلاقه، وبدأنا رحلة البحث عن الخطوة التالية.

امتلأ المكان بالبشر وكنت تائهة لا أجد من أسأله. وجدت الجميع يصعد للأعلى وكان هناك مصعد لكنه مكتظ بالبشر وينتظره العشرات، ولم يُبدِ أيٌّ منهم أي استعداد للتنازل عن موقعه لهذا الفتى الصغير. لم يكن هناك حل سوى الصعود للأعلى. لم نجد من يساعدنا هذه المرة، وبذل الولد جهدا خارقا في الصعود للطابق العلوي. يصعد بطيئا مستندا إلى عكازيه بينما يهرع غيره صعودا وهبوطا على عجل،

فلا وقت لديهم للانتظار. وصلنا للطابق المراد بعد عناء، ثم تلقينا الصدمة أن علينا الذهاب للمبنى المجاور عن طريق ممر طويل في الطابق الذي صعدنا منه للتو!

استشطت غضبا على غضب! لماذا المكان غير منظم؟ ألا يكفي المرضى ما هم فيه؟

شق طريقه بصعوبة مرة أخرى للطابق الأسفل، وذهبنا عبر الممر للبحث عن مقر اللجنة الطبية التي عليّ عرض ابني عليها لاتخاذ اللازم! وصلنا للجنة الطبية في الطابق الثاني من المبنى الثاني بعد معاناة. ما الحكمة من وضع اللجنة الطبية في الطابق الثاني؟ المترددون على اللجنة الطبية مرضى بلا شك باختلاف أعذارهم الطبية، لماذا لا تكون بالطابق الأرضي في مكان مناسب للمرضى؟ رأيت في الانتظار العديد من موظفي الحكومة وكان هو الطفل الوحيد بين المنتظرين! وتمَّ عرضه على الأطباء وتأكدوا أنه ليس تلميذا محتالا يدعي

هو أو أمه الإصابة بهذا المرض أو تركيب مثبت معدني زائف، طمعا في إجازة مرضية من الجنة ونعيمها! فحص الطبيب الأشعة، وألقى نظرة على فخذه المعدنية الصغيرة وكتب له إذنا بالغياب لمدة شهرين!

غادرنا المبنى الهادر بعد إتمام المهمة بنجاح. لم أستطع طوال طريق العودة للمنزل أن أفهم جدوى ما قمت به، ونفع ما تكبدته من مشاق لأجل طفل في الصف الرابع الابتدائي! لماذا لم أتجاهل الأوامر والتعليمات؟ لماذا رباني أبي على الالتزام بالقواعد والنظم؟ ما الضرر من تجاهل الأمر برمته وليخسر ما يخسر من درجات؟ نعم، يحتاج لدرجات أعمال السنة بلا شك فهي على الأقل درجات مضمونة هو في أمسّ الحاجة لها لينجح فقط، لكن هل يكون الثمن عذابا كالذي ذاقه اليوم؟

ومرت أربعة أشهر واقترب موعد نزع المثبت المعدني. وفي تلك الفترة نزع «ياسر» رفيق العيادة

الجهاز المعدني الخاص به، وبدأ في استعادة قدرته على المشي تباعا بعكازين ثم عكاز واحد ثم عصا ثم لا شيء، وكنا نقابله في العيادة ونسعد بما وصل إليه من تقدم. كان يعطينا الأمل ونفرح لفرحه بعد طول عذاب. وكنا نقابل «سارة» أيضا.

كانت «سارة» فتاة هادئة جميلة في مثل سن «محمد». وجهها بيضاوي لا تفارقه الابتسامة، تزينه عينان واسعتان برموش كثيفة وبريق لا تخطئه عين. كان يلازم «سارة» عكازان، وبنظرة واحدة على رجليها يمكن اكتشاف قصر رجل عن الأخرى. كانت تأتي لطبيبنا الماهر لإطالة الرجل القصيرة. كان حلم «سارة» أن تصبح راقصة باليه، وأصرت على السعي لتنفيذ حلمها مهما تكبدت من مشاق.

ـ أعلم أن الأمر يبدو مستحيلا، لكنني لن أكف عن المحاولة. يسخر مني الكثير من الناس لا بسبب عرجتي، لكن بسبب حلمي. لا يعنيني أمرهم. سأتحمل كل شيء في سبيل تحقيق حلمي بالوقوف

على خشبة المسرح.

اندهشت للثقة الشديدة التي تتكلم بها برغم حداثة سنها.

كم يدهشنا هؤلاء الصغار بما يدور في عقولهم!

أخبرتنا بأنها بدأت رحلتها منذ عامين، وبأنها باتت صديقة للمثبت المعدني فهو السبيل الوحيد لإطالة الرجل القصيرة. يركبه الطبيب وينزعه باستمرار مع تغيير مكانه في الرجل.

تنجح العملية أحيانا، وأحيانا أخرى لا تؤدي للنتائج المرجوة. لكنني لن أكف عن المحاولة.

لا أعلم لماذا كلما نظرت إلى وجهها المضيء رأيتها فراشة مبهجة تجوب المسرح في خفة ويصفق لها الحضور في انبهار. لقد آمنت بحلمها وبثت إيمانها في كل من حولها. طمأنت «محمد» أن لا خوف من نزعه، وأنه ليس مؤلما. اطمأن لكلامها خاصة أن «الحاجة ماجدة» كانت قد أخبرتنا من

قبل بأن نزع المسامير ليس بالإجراء المؤلم كما نعتقد.

ـ «لم أحتج لتخدير كما كان الوضع مع «ياسر».. لا تقلق يا رفيقي!».

كانت ابتسامة «سارة» الصغيرة ومثابرتها تعطياانني أملا في الحياة، وتزيدان من تقديرنا لطبيبنا الماهر الذي يرسم البسمة على وجوه الصغار والكبار.

مع كثرة ترددي على العيادة والتعرف على الكثير من الحالات المستعصية؛ أدركت تماما لماذا كتب فيه مرضاه الشعر، ولماذا رسم له آخرون الصور. كانت جدران غرفة الاستقبال في العيادة تكتظ باللوحات والأشعار التي تفيض بالمديح في براعة الدكتور «هاني»، ووالده الدكتور«ممدوح» من قبله ومهارته وإنسانيته. وكانت بعض اللوحات تعود لوالده الطبيب المخضرم من قبله؛ فهي مهنة إنسانية توارثتها الأجيال وأتقنتها ببراعة. طوال

خمسة أشهر من التعاقب المستمر على العيادة والتعرف على شتى أنواع المرضى؛ أدركت تمام اليقين أن ما كتب ليس من باب المجاملة ولا المبالغة، بل هو حقيقة ملموسة شعر بها الناس وعبروا عنها بصدق وعفوية. كان الجميع يدعون له بدوام الصحة، وكنت معهم أدعو الله أن يبارك في علمه وعمله هو ومساعديه الدكتور« ممدوح» الذي أسماه تيمنا باسم جده، والذي انضم لفريق العمل، والدكتور «مصطفى».

وفي يوم من أيام الشهر الخامس سقطت أمي في أثناء محاولة القيام من جلستها. وبالرغم من وجود أبي والجليسة عن يمينها ويسارها سقطت منهم على الأرض وتورمت قدمها. لم تكن المرة الأولى التي تسقط فيها وتتورم فيها قدمها، لكنها هذه المرة كانت مختلفة. كان التورم غريبا وظهرت فقاعات هواء تحت الجلد وامتلأت بسائل غريب.

واقترب موعد فك المثبت المعدني لـ«محمد».

وكنت على أعتاب مرحلة جديدة دقيقة لا بد فيها من القيام بعلاج طبيعي مكثف ومتواصل؛ لاستعادة القدرة على المشي واستعادة عمل العضلات بشكل طبيعي. كان لا بد من الانتهاء من فك الجهاز سريعا؛ لأن وضع أمي لا ينبئ بخير، وها هي أختي خارج نطاق الخدمة بسبب حالة رضيعتها المتدهورة. استدعينا سيارة الإسعاف لنأخذ أمي لإجراء أشعة على القدم في المستشفى حيث لم يكن هناك بديل سوى سيارة الإسعاف. وأظهرت الأشعة وجود كسر في الكاحل، وتم حجز أمي في المستشفى لأن الطبيب رأى ضرورة التدخل الجراحي. مرضى السكر لا تلتئم كسورهم، ومشكلة القدم السكري ربما تؤدي إلى بتر القدم. لا بد من إجراء جراحة لتدارك الوضع. سيتعذر تركيب شرائح ومسامير؛ لذلك رأى الطبيب أن تركيب مثبت معدني هو الحل الأمثل! مثبت معدني جديد! مادت بي الأرض. هل سأعيده مرة أخرى؟ أنا على أعتاب التخلص من مثبت «محمد» بعد خمسة أشهر كاملة، وهأنذا سأبدأ

الرحلة مرة أخرى مع أمي. لم أكن أستطيع استيعاب الأمر، بدا كل شيء حولي كابوسا ثقيلا غير مفهوم.

ذهبت للدكتور «هاني» مثقلة بالهموم. كان لا بد من استشارته في ذلك. كنت أحمل معي أشعة أمي وأشعة ابني. تفضل مشكورا بفحص أشعة أمي التي التقطت صورتها على جهاز المحمول الخاص بي. طالع الصورة ونظر إليّ نظرة عميقة وقال:

ـ هل تريدين رأيي؟

ـ بالتأكيد.

كان يعرف الطبيب الآخر بطبيعة الحال؛ فقد كان أحد تلامذته في الجامعة. كان رأي الدكتور «هاني» أنه لا داعي لإجراء عملية ولا تركيب مثبت معدني بل وضع جبيرة حتى يلتئم الجرح. قلت له إنها تعاني من ضمور في عضلات الرجل ولا تتحرك ولا تمشي، فما جدوى كل هذا الإجراء العنيف؟ وافقني الرأي وطلب مني مناقشة الطبيب الآخر في ذلك. هأنذا على بعد خطوات من فك الجهاز الخاص

بابني، والانتهاء من معاناة تنظيف الجروح والإفرازات، والهلع من إمكانية تلوث الجرح ووصول التلوث للعظم، وبدلا من تنفس الصعداء والتقدم في اتجاه آخر في رحلة علاج ابني عليّ أن أبدأ القصة من جديد مع أمي!

طالع الدكتور «هاني» أشعة «محمد» الجديدة بسعادة والتفت إلينا قائلا:

ـ هيا بنا أيها البطل لننزع هذا الشيء عنك.

باغتنا، فقد توقعت أنه على أقل تقدير سيقرر الموعد ويطلب منا الحضور مرة أخرى، لكنه كان قرارا واثقا مفاجئا، وكنت فعلا أريد الخلاص من هذا لأولي وجهي نحو أمي وتبعات ما حدث لها.

ابتسمت ابتسامة هي مزيج من الفرحة المفاجئة وعدم التصديق:

ـ الآن؟

ـ نعم.

- بدون تخدير؟

- نعم، لا حاجة لنا به!

ودخل ابني الشجاع إلى غرفة الجبس ودخل معه الدكتور «مصطفى» ليتولى الأمر. وبدأ فك المسامير ولم يستطع زوجي مشاهدة ما يحدث؛ فغادر الغرفة، بينما مكثت أنا منبهرة بشجاعة ابني وبمهارة الطبيب. كان الدكتور «مصطفى» يفك المسامير بسلاسة ويتحدث مع «محمد» في موضوعات شتى ليخفف من وطأة الحدث. لم يكن الأمر مؤلما لهذا الحد. لقد كان الدكتور «هاني» محقا فلا داعي للتخدير. كان الأمر أشبه بلعبة فك وتركيب للمسامير مثل لعبة الميكانو، وفي لحظة ما شعر ابني بالألم ورفض استكمال المهمة، لكن الدكتور «مصطفى» تفهم خوفه وطلب منه أن يحمل هو مفتاح الصوامل ويشرع في فك المسمار المستعصي. شعر ابني بالطمأنينة والتشجيع ومرَّ الأمر بسلام ونزع المسامير والجهاز بلا رجعة بإذن

الله. طلب «محمد» الاحتفاظ بالهيكل المعدني فلم يمانع الدكتور، وغسله «عم سيد» مما لحق به من دم وخلافه، وأعطاه له ليحتفظ به كذكرى لفترة هامة في حياته.

كنت في غاية السعادة، وكان «محمد» لا يصدق أنه تخلص من حمل ثقيل على فخذه لازمه خمسة أشهر كاملة. سيستطيع الآن ارتداء ما يحلو له من سراويل. لقد ظل طوال هذا الوقت لا يرتدي سوى سروال واحد فقط، لتعذر مرور الجهاز البارز من جنبات أي سروال آخر. سيستطيع الآن الجلوس على أي كرسي يحلو له بعد غياب خمسة أشهر. سينام على جنبه الأيمن. ستتوقف إجراءات تنظيف المسامير اليومية، سيستطيع استخدام المرحاض بيسر وحرية. ما أحلى الحرية!

كان يوم ٢١/٣ يوم الحرية التي طال انتظارها وافق اليوم الاحتفال بعيد الأم، وكان التخلص من الجهاز المعدني والانتهاء من أصعب فترة من فترات

المرض هي أجمل ما حدث لي في عيد الأم. وخفَّ الحمل عن كاهل الصغير لكن جثم حمل آخر على صدري، وهو مصير أمي المجهول بعد اختلاف الأطباء في معالجة كسرها. لقد اختلف الأطباء حول معالجة عظمة «محمد»، لكنني كنت صاحبة القرار نيابة عنه، لكن مع أمي الأمر مختلف هذه المرة فلا أملك الاختيار لها ولا حسم الخلاف.

وبدأنا مرحلة أخرى في رحلة العلاج. كان عليه استخدام العكاز لمدة شهر كامل قبل الاستغناء عنه واحدا تلو الآخر. أما السباحة التي كان يحلم بها فكان مقررا البدء بها بعد أسبوعين بعد تمام التئام الجروح موضع المسامير الستة. ما إن وصلت البيت حتى هرعت إلى جهازي وفتحت شبكة التواصل الاجتماعي (الفيسبوك)، لأزف الخبر لرفقاء الكفاح عبر الأثير. كان الجميع في النصف الآخر من الكرة الأرضية، وهناك فرق في التوقيت، لكنني لم أعبأ يوما، فدائما ما وجدت أحدهم مستيقظا ومرحبا. شاركني الجميع فرحتي وتمنوا لنا التوفيق في

المرحلة الثانية من العلاج وهي لا تقل أهمية عن الشهور السابقة. كان لا بد من الذهاب يوميا للسباحة لأنها أفضل أنواع العلاج الطبيعي؛ حتى تساعد على استدارة رأس العظمة عند نموها، كما أنها ستساعد على تحسين أداء الدورة الدموية، وستنشط الجسد الذي طال خموله.

ولم أكن أدري ما ينتظر أمي وينتظرني من أحداث. عدت لها برأي أستاذنا، وحاولت الوصول لمناقشة طبيبها في الأمر، لكن دون جدوى.

واختارت إجراء العملية وتركيب المثبت المعدني خوفا من تفاقم المشكلة وشبح بتر الرجل بسبب مرض السكر، والخوف من عدم التئام الكسر.. كانت تتشبث بالأمل ولم أملك إجبارها على رأي بعينه.

٩

ما أشبه اليوم بالبارحة

وتحدد موعد عملية تركيب المثبت المعدني في قدم أمي. ذهبنا جميعا في الصباح الباكر وكأن على رءوسنا الطير. غادرت الجليسة لأن وجودها أصبح بلا جدوى طالما انتقلت أمي للإقامة في المستشفى. وانتظرنا في غرفة الانتظار. يا الله! ما أشبه اليوم بالبارحة! غرفة عمليات مرة أخرى في فترة زمنية قصيرة، وجهاز معدني جديد سيتم تركيبه وسأتولى أمره بحكم الخبرة التي اكتسبتها مع «محمد». سأعيد الكرَّة من جديد وفي أقل من أسبوع! أعصابي لم تعد تحتمل هذا الكم من الترقب والتوتر والأحداث المتلاحقة. لقد اهترأت! انتهيت من جهاز «محمد» المعدني لأتولى جهاز أمي المعدني! مرَّ الوقت بطيئا، واستغرقت العملية وقتا أكثر مما استغرقته عملية ابني. وخرجت أمي على غرفة الرعاية المركزة، وقالوا وقتها إنه إجراء روتيني لمن هم في مثل سنها، لكن صبيحة هذا اليوم اكتشفنا

أنه ليس بالإجراء الروتيني مطلقا!

لقد حدث ما لم يكن في الحسبان. حدث خلل غير مبرر في عمل الجهاز التنفسي. هي الآن عاجزة عن التنفس بمفردها ولا بد من الاستعانة بأجهزة تنفس صناعي! وظلت في الرعاية يوما تلو الآخر مثبتة على أجهزة التنفس الصناعي، واحتار الأطباء في تفسير ما حدث. جن جنوننا جميعا وطالبنا بمقابلة طبيب التخدير، الذي أكد لنا أنها خضعت لتخدير نصفي؛ مما يعني أن الرئة لم تمس وأن الجهاز التنفسي كان بمنأى عن التخدير، وما حدث لا علاقة له بالتخدير وليست غلطة طبيب ولا أي شيء من هذا القبيل! ماذا حدث إذًا؟ لم يستطع أحد من الأطباء إعطاءنا جوابا شافيا. انتهت مهمة طبيب العظام، وغادر في غير اكتراث لأن مهمته قد انتهت، أما باقي التداعيات فلا دخل له فيها. كم كرهت بروده ولامبالاته! تذكرت نصيحة الدكتور «هاني» بعدم إجراء العملية والاكتفاء بالجبيرة. ليتها اختارت هذا الرأي!

بين عشية وضحاها أصبحت أمي رهينة غرفة العناية المركزة موصولة بأجهزة تنفس صناعي وأجهزة أخرى لقياس مستوى الأكسجين في الدم ومراقبة ضغط الدم. وظلت أمي على الأجهزة يوما بعد يوم ولا يملك أحد تفسيرا لما حدث. توقفت عضلة الحجاب الحاجز عن العمل. ومرَّ أسبوع والوضع يزداد سوءا، وكلما حاولوا نزع الأجهزة توقف التنفس ولا مفر من الأجهزة. واستشرنا طبيبا تلو الآخر وكعادتي بحثت على صفحات الإنترنت لعلِّي أجد تفسيرا دون جدوى. كان كل ما أجده من معلومات صادما فلا يمكن البقاء على الأجهزة للأبد، إذا استمر الوضع كذلك لأكثر من أسبوعين فلا بد من إجراء شق حنجري تتصل به الأجهزة. كانت مستلقية في وحدة الرعاية المركزة لا حول لها ولا قوة. تأكل عن طريق أنبوب الأنف الذي يشق طريقه للمعدة وتحيط بها الخراطيم والأجهزة من كل مكان. تحلق في سقف الغرفة وتذكر الله في كل وقت وحين! كانت مواعيد الزيارة مرتين يوميا

وكان عليّ التواجد في كل الأوقات، فأنا من يحاور الأطباء أو يحاول على الأقل فهم ما يحدث. في الصباح طلب الطبيب التحدث إلى الطبيبة ابنة المريضة، كان يقصدني، وابتسمت ابتسامة ساخرة مريرة، هأنذا للمرة الثانية بعد قصة «محمد» يعتقد الأطباء بأنني طبيبة نظرا (إلى سخافتي) في مناقشة الأمور الطبية، وتحدثي بثقة عن الوضع الراهن والتشخيص الحالي، مستخدمة المصطلحات الصحيحة التي تسهل عمل الطبيب وتختصر عليه الكثير من محاولات شرح الوضع لأهل المريض.

التقيت الطبيب المعالج أستاذ الأعصاب الشهير الذي بادرني بتحيتي طبيبة زميلة، ولكنني أكدت له كالعادة أنني ما أنا إلا مترجمة تستهويني المعلومات الطبية وحصلت على دبلومة الترجمة الطبية. صرح لي الطبيب بأنه لا بد من إجراء الشق الحنجري وبأنها ستفقد القدرة على الكلام؛ نظرا إلى أن الشق سيتم توصيله بجهاز تنفس صناعي. في الأحوال العادية يستطيع المريض الذي خضع لشق حنجري

أن يسد الشق بإصبعه ويتحدث، لكن في حالتها سيستحيل الكلام لأن الأحبال الصوتية لن تعمل بسبب وجود جهاز التنفس الصناعي. أكد أنهم سيستمرون في محاولات فصلها عن الجهاز لعل وعسى أن تستجيب الرئة وتعمل مرة أخرى. كانت صدمة شديدة لي. كيف سأنقل لها الخبر؟ كيف سأخبر أبي وإخوتي؟ شعرت بالغضب، ليتنا لم نجرِ العملية! ليتنا اتبعنا رأي طبيبنا المنقذ الدكتور «هاني»! لكن فات الأوان، قدر الله وما شاء فعل!

وعلى الصعيد الآخر، كنا ننتظر انتهاء الأسبوعين المهلة الممنوحة بعد فك الجهاز لتلتئم فتحات الجلد بفارغ الصبر. كان الوقت يمر بطيئا كئيبا. وبعدهما كان لا بد من البدء بتمرينات السباحة. في الصباح استيقظ «محمد» متحمسا ومتهيبا في الوقت ذاته. كان ما زال يتكئ على عكازيه الصغيرين. تهيأنا للذهاب للنادي وانطلقنا. كنت أسترق النظر إليه فألمح ملامح وجهه وقد امتزجت بها الفرحة بالوجوم. كان خائفا من محاولة الحركة

بعد طول ركود. كان يشك في أنه سيستطيع السباحة مرة أخرى وتحريك رجليه ذهابا وإيابا في الماء. وصلنا للنادي وباستخدام العكازين اللذين أصبح ماهرا فيهما قطع الطريق ووصل لحمام السباحة. خلع ملابسه واقترب من الماء ووقف قليلا يتأمله في هيبة وخوف. أخذت العكازين منه وساعدته على القفز في الماء. قفز في الماء لأول مرة بعد خمسة أشهر ونصف الشهر من التوقف الإجباري عن كل نشاط وعن كل حركة. كان يضحك سعيدا وهو يحرك رجليه في الماء.. ما أحلى الحرية!

ـ أنا أسبح! أنا أتحرك! لم أفقد القدرة على السباحة. ما أحلاها.. ما أحلاها! أخذ يقفز في سعادة ويغمر رأسه في الماء.

شاركه أخوه الصغير لهوه. ضحكا ولعبا معا. كانت السعادة تحيط بالمكان. ولم يمكث سوى ربع ساعة فقط، وشعر بالتعب بطبيعة الحال. خرج من الماء

وقد استعاد ثقته في نفسه وتنفس حلاوة الحرية بدون عكازين وبدون الجهاز المعدني المزعج. وكان هذا روتيني اليومي؛ اصطحابه صباحا للسباحة ثم العودة للذهاب لأمي مرتين يوميا في موعدي الزيارة المسائي والليلي.

مرَّ أسبوعان وهي على جهاز التنفس الصناعي، ولم يكن هناك بد من إجراء الشق الحنجري. بحثت كثيرا واستشرت دكتورة «رانية» طبيبة التخدير وصديقتي المقربة وأكدت لي أن لا مفر من الشق! كانت أمي لا تدري ما يفعل بها ولم نملك سوى الانصياع للأطباء ودخلت لإجراء الشق الحنجري واستسلمت لقضاء الله. ولكنها ظلت بالرعاية المركزة لأن الأجهزة لا يمكن نقلها للغرف العادية. وبدأ الأكل عن طريق السوائل والتغذية الوريدية عن طريق المحاليل. لم يكن مسموحا لها بالأكل العادي عن طريق الفم في هذه المرحلة.

ومرَّ شهر وهي على هذا الحال في غرفة العناية

المركزة، ونسيَ الجميع السبب الأول والرئيس لدخولنا المستشفى، وهو كسر القدم. وأصبحت القدم المحاطة بالأعمدة المعدنية نسيا منسيا. استشطت غضبا لأنهم لم ينزعوا الأربطة، ولم يكن هناك من ينظف الجروح يوميا كما كنت أفعل مع ابني. هل هو تقصير منهم، أم هل أدركوا أن الأمر تعدى القدم المكسورة، فأصبح الوضع كارثيا لن تضيره قدم ملفوفة بالأربطة أو مثقوبة بالمسامير؟! طلبت التحدث مع طبيب العظام وأكد أن الأمور فيما يختص بعمله تسير بشكل طبيعي. استعنا بطبيب آخر وشخص حالتها بأنها مرض (جيان باريه). وكعادتي هرعت لصفحات الإنترنت أبحث وأقرأ ما هو كنه هذا المرض. وشعرت بأنه ليس هو ضالتنا المنشودة. واستشرت طبيبة صديقة عبر الهاتف وصارحتها بشكوكي المتواضعة. من أنا لأخالف رأي أستاذ كبير مثله؟ كنت مصرة على رأيي، ولكن لم نملك سوى الانصياع لرأيه بضرورة القيام بجلسات لتغيير بلازما الدم.

طلب ثماني جلسات وكانت التكلفة مرتفعة جدا، لكن لم يكن الأمر يتعلق بالمادة بل بصعوبة إجراء تغيير البلازما وما يصاحبه من ألم. وتحملت أمي الألم والعذاب بصبر واستكانة، وقامت بإجراء أربع جلسات، ولم يتحسن الأمر قيد أنملة. لقد كنت محقة في تصوري ورفضت أمي تماما استكمال باقي الجلسات، ورأى بعض الأطباء أن الجلسات كان يجب أن تظهر أي تحسن، لكن التحسن لم يكن موجودا بأي شكل من الأشكال بل ازداد الأمر سوءا. وبدأت الممرضات في اكتشاف تسريب للسوائل من الشق الحنجري. حتى عضلات البلع أصبحت ضعيفة وتسرب الطعام ليدخل مجرى الهواء ويسبب لها اختناقا شديدا لعجزها عن السعال لطرده. كان التدخل الفوري عن طريق جهاز شفط مزعج تدسه الممرضة داخل أنبوب الشق لسحب بقايا الطعام العالقة. كانت هذه المهمة الطارئة تتم بعد نزع خرطوم جهاز التنفس فكانت أمي تعاني من بضع لحظات من الاختناق المؤقت ريثما يعاد الأكسجين

إلى رئتيها.

وكان القرار الطبي الجديد بضرورة إجراء عملية جديدة لتركيب أنبوب تغذية في المعدة. منع عنها الأكل عن طريق الفم خوفا من دخول الطعام للقصبة الهوائية. كانت الحالة تتدهور سريعا بصورة مؤلمة. ومكثت في الرعاية المركزة لشهرين كاملين.

شهران كاملان كنت أصطحب «محمد» في الصباح إلى المسبح ليقوم بالعلاج الطبيعي المطلوب وليحرك عضلات رجليه التي طال خمولها وليروح عن نفسه وينطلق في الماء حيث يشاء دون خوف؛ فالسباحة هي خير علاج لحالته. ثم أعود لأدير شئون المنزل من طعام ونظافة حتى يجد «عبد الرحمن» الأكل جاهزا عند عودته من الدرس وقبل الاستعداد للنزول لحضور درس آخر! أنزل في الرابعة لأصطحب والدي لزيارة أمي في غرفة الرعاية المركزة في الموعد الأول من الرابعة للخامسة عصرا، ثم العودة للمنزل ومعاودة النزول

في الموعد الآخر من الثامنة وحتى التاسعة مساء! كان لا بد من زيارتها للتخفيف عنها في وحدتها القاتلة في الغرفة الصغيرة المكتظة بالأجهزة المزعجة التي لا تكف عن الطنين. لم أكن أتخلف عن الزيارتين إلا للذهاب للدكتور «هاني» مع «محمد» لمتابعة حالته.

وفي خضم هذه الأحداث كان موعد امتحانات آخر العام الدراسي. وكان على «محمد» الذهاب لأداء الامتحان مع زملائه. ووقفت حائرة هل أسمح له بأداء الامتحان في اللجنة وسط زملائه الذين لم يقابلهم منذ بدء العام، أم من الأفضل أن يجلس في عيادة طبيبة المدرسة كما فعلنا في امتحانات نصف العام؟ كان يشتاق لصفه ولرؤية زملائه، وكنت في غاية الخوف مما يحمله قرار كهذا من التعرض للسقوط على الأرض أو التعثر لأي سبب. كان يسيطر عليَّ هاجس مخيف من التعرض لأي شيء يمكن أن يعرض جهد الأشهر السابقة للخطر. تخيلت الأطفال وقد نزعوا منه العكاز للعب أو لمجرد

استفزازه، كما يحلو لهم في هذه السن. كان «محمد» يلازمني ليل نهار لمدة سنة منذ يوم العملية، وتركه يواجه الأمور بمفرده كان مقلقا لي. كانت أعصابي متوترة ولم أكن أتحمل التفكير في أي عواقب لقرار أن يجلس في فصله وسط زملائه لأداء الامتحانات. قررت أن أستعين بعيادة طبيبة المدرسة، لكنني فوجئت به يرفض باكيا في إصرار غريب. كان يريد أن يشعر بأنه عاد طفلا طبيعيا. كان يريد رؤية أصدقائه ومدرسيه. كان يرفض العزلة مرة أخرى. شعرت بأن أي ضغوط سأمارسها عليه حتى وإن كانت لمصلحته، ستؤثر سلبا على سلامة نفسيته. لم أملك سوى الانصياع لرغبته فماذا سأستفيد إن حافظت على سلامة رجله، وتسببت في الإضرار بنفسيته؟

وذهب للامتحان متكئا على عكازيه الصغيرين، واستقبله زملاؤه ومدرسوه بحفاوة بالغة. كان سعيدا لرؤيتهم، وكان الأطفال يتصرفون بحكمة وهدوء وأخلفوا ظنوني. استودعته الله وتركته

وانصرفت وأنا أشعر بفراغ شديد. لقد كنت أدور في فلكه بلا توقف ليل نهار أرعاه وألاحظه. كيف أتركه بهذه السهولة؟ شعرت بفراغ عجيب وبخواء مؤلم. جلست خارج المدرسة في انتظاره. ومرت فترة الامتحانات بسلام وسلاسة. كنت أريد حماية الجهد الخارق الثمين الذي بذلناه بأي طريقة.

وفي المستشفى قرر الأطباء أنهم بذلوا كل ما يستطيعون من جهد. لا حل لديهم! سيبقى الوضع على ماهو عليه فلديها فشل في الجهاز التنفسي من الدرجة الثانية وستعيش ما بقيَ لها من عمر معتمدة على أجهزة التنفس الصناعي بشق حنجري وأنبوب تغذية معدية. كان التفسير الوحيد هو أن ضعف عضلات الجسم الخارجية لسبب ما امتد إلى العضلات الداخلية فأصاب عضلة الحجاب الحاجز وأفشل قدرة الرئة على العمل بصورة طبيعية.

وكان الحل الوحيد لمغادرة غرفة الرعاية المركزة هو شراء جهاز تنفس صناعي متنقل، واصطحابه

إلى المنزل برفقة ممرضة متخصصة في الرعاية المركزة. وقام أبي بشراء جهازين واحد لاستخراج الأكسجين من الهواء والآخر لضخ الأكسجين داخل الرئة، وغادرت أمي الرعاية المركزة بعد شهرين كاملين. وكما غادرت المنزل في سيارة إسعاف، عادت إليه مرة أخرى في سيارة الإسعاف!

وصلت للبيت وقد اتصل بها عدد من الأجهزة والخراطيم ستلازمها إلى ما شاء الله! كان لا بد من وجود ممرضة رعاية مركزة على مدار الساعة. وتمت الاستعانة بممرضات المستشفى اللاتي باشرن حالتها منذ البداية. وبدأت مرحلة جديدة من العناية بأمي التي فقدت القدرة على الكلام والأكل والحركة. كان الوضع بائسا ومحزنا لأبعد الحدود، لكنها كانت واعية ومدركة تماما لكل ما حولها، وكان هذا ما يؤلمنا ونحن نراها تحولت إلى جسد بلا حراك. كانت تعتقد بأن الأمر مؤقت ولم نشأ أن نصدمها. كنا جميعا نشعر بالأسى لحالها ونشفق عليها وهي ممددة بلا حراك. وكان من حسن حظها

أن استطعنا الحصول على سرير طبي نرفعه لها فتستطيع مشاهدة التلفاز، سلوتها الوحيدة طوال هذه الفترة من الوجود أو اللاوجود بمعنى أدق. لازمتها ممرضة تلو الأخرى في تناوب منتظم، واستأنفت رعايتي لـ«محمد» في فترة النقاهة، وكان عليَّ تقسيم اهتمامي بين مريضين احتلا جزءا كبيرا من عقلي وقلبي.

نظريا كان من المفترض أن أكون في قمة سعادتي حيث سمح لنا الطبيب بنزع العكازين تدريجيا واحدا تلو الآخر. كان «محمد» خائفا ويشك في قدرته على المشي مرة أخرى دون الاستعانة بهما.

ـ لقد نسيت كيف أمشي!

ـ لا تقل ذلك! لقد قلت ذلك مع السباحة، وأثبتت لك التجربة أنك ما زلت بارعا فيها.

كان يحاول الاعتماد على نفسه ويشجعه كل من حوله. لكن عمليا كنت مشغولة بحال أمي الذي لم

يكن في الحسبان. كانت جهودي مشتتة بين الاثنين، وبالي مشغولا ولم أهنأ بتقدم حالة «محمد». كانت المرحلة تتطلب العودة مرة أخرى لركوب الدراجات. نصحنا الطبيب بالبدء بالعجلة الرياضية الثابتة، ثم بعد تنشيط العضلات واستعادة القدرة على تحريك المفصل في حركة دائرية العودة للدراجة المتحركة. كانت لدى أمي واحدة تمارس عليها جلسات العلاج الطبيعي، والآن وبعدما صار ما صار أصبحت حلما مستحيلا بالنسبة إليها. أخذنا الدراجة ليبدأ «محمد» في استخدامها. أما دراجته الجديدة فقد أعدنا تثبيت المساند الجانبية حتى لا يسقط من عليها، وبدأ في استخدامها مرة أخرى بعد طول غياب. كان سعيدا وكنت سعيدة لسعادته. وفي صباح الجمعة من كل أسبوع، كان والده يصطحبه للسباحة مع أخيه الصغير وبدأ في التحسن نفسيا وجسديا.

واكتملت سعادتنا عندما ظهرت نتائج امتحان آخر العام وكللت جهودنا بالنجاح. شكرت الله أنه

نجح، فالأمر لم يكن ليسمح بالرسوب أو إعادة الامتحان في الصيف. لقد كان ينتظر الصيف بفارغ الصبر ليعوض ما فاته من لعب ولهو. تنفست الصعداء فها قد نجح واحد وبقيَ طالب الثانوية العامة الذي يكافح وحيدا منذ بداية العام.

كانت آمال «محمد» عريضة في السابق ولديه الكثير من الخطط التي يحلم بتحقيقها بعد انتزاع حريته من المثبت المعدني، لكن تدهور الأوضاع مع أمي جعل من المستحيل تحقيق آماله في السفر والانطلاق. لقد أتت الرياح بما لا تشتهي السفن، وتحول بيت العائلة إلى غرفة عناية مركزة وطوارئ مستمرة. استمر في السباحة وركوب الدراجة ولم يكن مسموحا له بالجري أو القفز وكان هذا مزعجا له. كان يريد الانطلاق، لكن العظمة لم يكتمل نموها بعدُ ولا بد من الحذر. وتغير موعد المتابعة مع الطبيب من شهريٍّ إلى كل ثلاثة أشهر. كانت الأشعة تبين تطورا بطيئا لكنه جيد. ومرت شهور الصيف بين محاولة التخفيف عن أمي والعناية بشئونها

وتوفير سبل الراحة لها ولمن يقوم على العناية بها من الممرضات، وبين محاولة إدخال السرور على «محمد».

ولم أتوقف عن متابعة أسرة الدعم على الفيسبوك، وكان «محمد» يشاركني الفرح لفرحهم والترقب لمن يقوم بإجراء عملية جراحية. كان يلاحظ أن الأغلبية سواء في أستراليا أو نيوزيلندا يجرون الجراحات التي رفضناها، ويكون لزاما عليهم التقيد بالكرسي المتحرك أو عدم مغادرة السرير لفترات طويلة، مع تعليق الأرجل في السقف وهي متباعدة. حتى بعد خروج هؤلاء الأطفال من المستشفى كانت شوارع بلادهم مهيأة لاستقبالهم على كراسي متحركة لعدة أشهر. كانت كل السبل ميسرة لهم من وسائل انتقال أو طرق مخصصة لذوي الاحتياجات الخاصة، وكان هذا هو الفرق بين وضعهم ووضعنا. شعرنا بالامتنان لطبيبنا الماهر وحمدنا الله يوما بعد يوم أن وفقنا لهذا الاختيار. لم نكن لنستطيع التأقلم مع الحلول الأخرى التي

تتطلب ظروفا محيطة مساعدة ومجموعة من الاستعدادات اللوجستية التي يصعب توفرها هنا.

واستمر الروتين اليومي بين الذهاب للسباحة، وتفقد أحوال والدتي وتجهيز الطعام الخاص لها وللممرضات. كانت تدمع عيناها فرحا عندما يذهب إلى غرفتها دون عكازات وقد تحسنت مشيته إلى حد كبير. لم يعد يعرج كما كان الحال قبل العملية. المجهود أو المشي كان يؤدي إلى تعرج مشيته، لذلك كنت أحاول تجنبه. لم تنتهِ مهمتي معه؛ فأحيانا كان ينخدع بقدراته ويقفز أو يجري وكنت أراقبه من بعيد وأتدخل رادعة إذا لزم الأمر. عندما يجتمع الأطفال ينسى كل المحاذير ويحطم كل القواعد، وكنت هناك لأمنعه قبل الوقوع في المحظور. كان يغضب مني أحيانا ويراني أمّا متعسفة أتفنن في هدم متعته مع أقرانه، ويشكرني أحيانا أخرى عندما تؤلمه رجله بعد رفض الانصياع لتعليمات الطبيب، ويدرك أنني كنت محقة في منعه من الجري أو القفز كالآخرين.

واقترب موعد امتحانات الثانوية العامة وتزامنت مع شهر رمضان المبارك. كنت قد فوضت أمري لله، ووضعت ثقتي الكاملة في حسن تصرف ابني «عبد الرحمن» فلقد كان يشبهني. كان مثلي يعمل في صمت يدرك ما له وما عليه، ويعتمد على نفسه تمام الاعتماد. فوضت أمري لله فلم أقصر معه بإرادتي ولم أهمله متعمدة، بل كانت تتقاذفني أمواج المصاعب من كل اتجاه. وبدأت امتحانات الثانوية العامة، وكنت أقوم باصطحابه كل يوم للامتحان، فهذا أقل ما يمكنني فعله له بعد أن انشغلت عنه عاما كاملا. كنت أوصله وأدعو له بأن يكلل الله مجهوده بالنجاح. وكانت البداية غير مشجعة؛ حيث تمَّ تسريب امتحان اللغة العربية عبر صفحة مجهولة من صفحات الفيسبوك تدعى (شاومنج)، وحصل هرج ومرج بين الطلاب. تعجبت كيف أن هذا الفيسبوك أداة تدمير برغم كل ما قدمه لي من خدمات عبر مجموعات الدعم. حاولت التخفيف عنه ونصحته بألا يلتفت لأي من المناقشات التي تثبط

الهمم أو تصيب بالإحباط.

ـ لقد بذلت كل ما في وسعك، ولن يضيع الله جهدك. ثق في ذلك تماما.

وتوالت التسريبات عبر هذه الصفحة المجهولة. وفي يوم امتحان الديناميكا وبعد أن تنفس الصعداء للانتهاء منه على خير، فوجئ الجميع بإلغاء الامتحان وتحديد موعد جديد له! غضب غضبا لا حد له؛ وكان محقا.

ـ ما ذنبي وما ذنب زملائي الذين بذلوا أقصى جهدهم بأمانة؟ لقد جاوبت وأنا راضٍ وسعيد بأدائي، فلماذا يضرب بجهدي عرض الحائط؟ لا بد أن الامتحان الجديد سيكون معقدا وصعبا كنوع من الانتقام!

كان يتبادل عبارات التذمر والغضب مع زملائه وكانوا محقين، لكن لا يملكون سوى الانصياع.

ـ إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا.. ثق في

ذلك، وكف عن عبارات الإحباط.

وانتهت امتحانات الثانوية العامة بحلوها ومرها، وكانت الأسوأ من حيث تسريب الأسئلة. واقترب موعد إعلان النتائج وترقبنا جميعا الأخبار. كانت «داليا» إحدى الممرضات التي تقوم على رعاية أمي، فتاة مجتهدة تدرس بكلية التمريض، وتعمل على اكتساب الخبرة والمال معا. كنت أشجعها وأعجب بمثابرتها وتفوقها، هي أول من بشرتني بنتيجة الثانوية العامة. نجح ابني بتفوق. عمَّ البيت فرح وبهجة طال انتظارهما وسط أحداث عام كئيب مرهق. فرح الجميع وسجدنا لله شكرا أن أدخل الفرحة على قلوبنا. شكرت ابني لالتزامه وتقديره للظروف التي مررنا بها. شكرته لأنه عمل في صمت، وأدى واجبه على أكمل وجه، ولأنه أدرك تماما أن انشغالي عنه كان رغما عني بسبب زيارات الطبيب المتكررة والأشعات، ورعاية أمي ومرافقتها قدر المستطاع. فرحت أمي فرحا شديدا، فقد كان حفيدها الأول وكان يمر عليها يوميا ليسألها الدعاء

له بالتوفيق والسداد؛ فيدخل عليها السرور ويقبل يدها في حب.

وزادت سعادتي بنجاح «داليا» في امتحاناتها وحصولها على تقدير ممتاز في كلية التمريض. كانت فتاة مجتهدة وكنت أعجب من مثابرتها وإصرارها على النجاح الباهر الذي سيفتح لها آفاق العلم والدنيا. كانت «داليا» صديقة جديدة تستشيرني في كثير من الأحيان، وأسعد بالحديث معها في أثناء جلوسي الطويل مع أمي.

ومضت شهور الصيف واقترب موعد العودة للدراسة. كلما اقترب الموعد زادت سعادة «محمد» وحماسته وزاد قلقي. كنت قلقة من إرساله للمدرسة؛ لأن عظمة المفصل لم تكتمل بعدُ. تحتاج العظمة لسنتين تقريبا حتى يكتمل نموها، فلا يمكن أن أبقيه حبيس المنزل كل هذه الفترة. ماذا لو تعثر وسقط؟ ماذا لو دفعه أحد أصدقائه أرضا؟ ماذا لو خالف الأوامر وجرى وقفز؟ كيف سيحمل شنطة

المدرسة الثقيلة؟ كيف سيصعد بها الدرج ليصل إلى صفه؟ كنت قلقة ومتوترة. استشرت طبيبه فقال إنه لا مانع لديه من العودة للمدرسة ملتزما بالتعليمات. قدمت طلبا لمديرة المدرسة بإعفائه من طابور الصباح لتعذر الوقوف لوقت طويل، وأرفقت شهادة طبية ممهورة بإمضاء الطبيب المعالج، بالإضافة إلى طلب لإعفائه من حصص التربية الرياضية. تفهمت المديرة الأمر وتعاونت معي. طلبت منها أيضا السماح لي بحمل الشنطة نيابة عنه وإيصالها لفصله، وتفضلت مشكورة بالموافقة. أشار علينا الدكتور «هاني» أن يحتفظ بالعكازات معه في المدرسة؛ حتى يعلم القاصي والداني أن رجله مصابة فيترفق به. وكانت فكرة جيدة.

ومع اقتراب موعد بدء العام الدراسي الجديد كان سعيدا ونحن نشتري مستلزمات الدراسة. اشترى حقيبة بها عجلات حتى لا يحمل الكتب بل يجرها؛ مما يخفف الحمل عنه. اشترى حذاء جديدا وكان سعيدا لأنه ظل لسنة كاملة لا يستطيع أن

يرتدي سوى حذاء واحد فقط؛ لأنه الوحيد الخفيف الذي يشعر فيه بالراحة. جهز كتبه وأقلامه ونام يحلم بيوم دراسي وحياة مدرسية افتقدها لعام كامل، وبأحداث جسام غيبه مرضه عن المشاركة فيها.

وفي الصباح الباكر استيقظ كله همة ونشاط، تناول فطوره وارتدى زي المدرسة بفرح شديد كمن يرتدي تاجا ملكيا. وأخذ العكاز على مضض. كان قد ملَّ منه أيما ملل، وأصبح مرتبطا في ذهنه بفترة عصيبة يود نسيانها لا تكرارها. لكن كان هذا هو الاتفاق.

ـ هل تريد أن يذهب مجهود العام الماضي كله سدى؟

ـ بالطبع لا، لكنني مللت منه كما أن يدي تؤلمني من استخدامه. جلد يدي تقطع منه!

ـ اصبر يا «محمد»! لقد تحملت الكثير فتحمل ما بقيَ من وقت قليل حتى لا تفسد ما أصلحناه.

أرجوك يا «محمد» عليك استخدامه خاصة في صعود السلم حتى لا يصطدم بك أحد.

ووصلنا المدرسة وانتظرنا بالخارج حتى انتهاء طابور الصباح ثم دخلنا. حملت عنه حقيبته وصعدنا الدرج حتى مكان فصله. استودعته الله ومشيت. وطلبت منه عدم نسيان ما اتفقنا عليه بشأن الفسحة. كنت قد طلبت من المديرة استبقاءه في الدور ذاته، وعدم النزول للملعب أو لساحة المدرسة في فترة الاستراحة؛ حتى لا يتعرض للتدافع على السلم، ولا يضطر لصعود الدرج أكثر من مرة في اليوم. كان يرفض الفكرة تماما، لكن كان هذا هو شرطي للذهاب للمدرسة وإلا البقاء بالبيت. ودعته وغادرت. وفي موعد الانصراف عدت إليه لأصطحبه وأحمل عنه حقيبته، ثم المرور لاصطحاب أخيه من نفس المدرسة. كانت الخطة الجديدة التي فرضها علينا بدء الدراسة هي الذهاب للسباحة مباشرة بعد المدرسة. كانت فكرة العودة للمنزل وتناول الغداء ثم الذهاب للسباحة مستحيلة. كان صعود الدرج

أكثر من مرة مزعجا له، والتراخي في البيت يمكن أن يصيبه بالكسل، فلا بد من الذهاب بعد المدرسة مباشرة وهو ما زال نشيطا. عادت بنا الأيام لمرحلة ما قبل العملية. ما أشبه اليوم بالبارحة!

كانت الخطة التي رسمتها للاستمرار في السباحة جيدة، لكن مع الوقت ملّ منها. كان عليه استبدال ملابس المدرسة هو ويوسف أخيه أولا. أحيانا كانا يشعران بالكسل، وفي أحيان أخرى بالجوع. وفي بعض الأيام كان يرفض الذهاب لأن لديه الكثير من الواجبات ولا وقت لذلك. كنت أطاوعه كثيرا، وأصر على السباحة في أوقات أخرى، لكن مع الوقت اكتشفت أنه إن لم يكن راغبا في السباحة فالأمر بات إضاعة للوقت وللجهد. عندما لا يسمح له مزاجه فهو ينزل إلى الماء خائر القوى، ولا يتحرك كما يجب. إجباره لا يجدي نفعا.

وفي شهر ديسمبر قمنا بزيارة الدكتور «هاني» بأشعة جديدة، وطمأننا بأن الأمور تسير بشكل

طبيعي. أظهرت الأشعة تقدما ملحوظا في النمو، لكنه طلب إجراء أشعة مقطعية. كنت أعلم أن العظمة عندما تبدأ في النمو مرة أخرى لا تنمو باستدارة كاملة كما كان حالها قبل التآكل. في بعض الأحيان تنمو بشكل مشوه يحتاج لتدخل جراحي ليعيد تشكيلها باستدارة. كان قد مرت ستة أشهر منذ مرض أمي الشديد، وقبلهم ما مررت به مع «محمد»، وقبلهم مرض خالتي، فكنت مستنزفة عصبيا ونفسيا. داخليا كنت قد اتخذت قرارا بعدم الخضوع لأي عمليات جراحية مرة أخرى. لقد خارت قواي النفسية والعصبية والبدنية. لم أتعافَ مما مضى ومما يحدث حاليا. لن أتحمل مزيدا من التوتر والقلق! تعبت من اللهاث المتلاحق، وكنت أحيانا كثيرة أستشيط غضبا من زوجي، أين هو في كل ما يمر بي؟ أعلم أن طبيعة عمله صعبة، وأنه ربما يقوم بعمل يفوق ما أقوم به، لكنه كان الحاضر الغائب. كان غارقا في مهام جسام من نوع آخر، وطبيعة عمله لا تمنحه رفاهية الالتفات لمشاكله العائلية أو

الشخصية! أحمد له ثقته المطلقة في قدرتي على إدارة الأمور، لكنني بشر أحتاج لمن يساندني ويشد من أزري. لقد حولتني المسئوليات الجسام إلى آلة تؤدي عملها بمهارة وانتظام. كل يوم لديَّ قائمة بالمهام والضرورات التي أنفذها بآلية؛ لأنني لو سمحت للمشاعر بالتدخل في عملي فلربما أفسدته أو أفشلت قدرتي على الاستمرار.

أشعة جديدة وزيارة جديدة للدكتور «هاني». ثبت الأشعة في الإطار المضيء وأعطانا ظهره، وبدأ في مناقشة الأمر مع الدكتور «مصطفى». كنت أفهم ما يقولون وما يشيرون إليه في العظمة الصغيرة. دقائق واستدار إليَّ ليجدني أحرك رأسي يمينا ويسارا ولسان حالي يقول:

ـ يكفي! لا مزيد من العمليات يا دكتور لا أتخيل إعادة الكرة! ليس الآن!

تقبل رفضي بل تسرعي في استنتاج الأمور بهدوء عجيب.

ـ إذا كان لا بد من التدخل فسنتدخل جراحيا لنحت العظمة واستكمال استدارتها. ستكون جراحة بسيطة هذه المرة لا تقلقي! لكن لن نسبق الأحداث.

التفت إلى «محمد» قائلا:

ـ أمامك ستة أشهر أيها البطل لإخراج نفسك من هذه الورطة. ربما تنجح في مهمتك دون تدخل مني!

اتفقنا على العودة بعد ستة أشهر بأشعة جديدة. كانت المحظورات من جري وقفز ما زالت قائمة للحفاظ على ما نما من عظم. غادرنا العيادة ونحن نشعر بمزيج غريب من المشاعر. لقد اعتدنا الحضور كثيرا.. سنفتقد زيارة الطبيب وسنفتقد المكان الذي منحنا الأمل والرعاية اللازمة. كيف سنغيب عنه ستة أشهر كاملة ونحن الذين كنا نشد الرحال يوما بعد يوم؟ لقد قطعنا شوطا كبيرا في العلاج وشارفت الرحلة على الانتهاء. يا له من مزيج عجيب بين الفرح والحزن! بين التشوق للمستقبل والحنين

للماضي! ارتبطنا بالمكان وأهله حتى حارس العقار اعتدنا رؤيته وتحيته في كل مرة.

ويوما بعد يوم كانت أحوال أمي تزداد سوءا. أصبحت الآن تدرك أن الوضع دائم وليس مؤقتا، وأنها لن تستطيع التحدث مرة أخرى ولا الاستمتاع بما تحب من طعام. كان الأكل مهروسا مخففا عن طريق أنبوب التغذية الموصول بالمعدة. كانت راضية أحيانا، وحزينة أحيانا أخرى. كان أكثر ما يؤلمني رؤيتها تبكي، وأنا أقف أمامها عاجزة لا أستطيع مساعدتها ولا تخفيف ما بها من قضاء الله! كنا نشفق عليها جميعا. بين عشية وضحاها حرمت من الحركة والأكل والكلام. فقدت الاتصال بالعالم الخارجي. في البداية كانت تكتب ما تريد قوله، ثم ضعفت عضلات اليدين فأصبحت الكتابة أمرا شاقا ثم مستحيلا. كان علينا قراءة شفتيها، وكنت أكثرهم براعة في ذلك أنا وأختي الصغري ثم اعتاد الآخرون على الأمر.

في السابق كانت تتصل بي هاتفيا وتقضي ساعات من يومها تتحدث إليّ، بينما أقوم بطهي الطعام أو تنظيف البيت فتسلي وقتها وأنجز مهام بيتي في نفس الوقت. كنت أمسك هاتفي بيد بينما تنشغل اليد الأخرى بمهمة أخرى، وعندما كنت أحتاج لليدين كنت أرتدي ملابس الصلاة وأثبت الهاتف فوق أذني وأطلق العنان ليدي لإنجاز ما تيسر من أعمال منزلية. لكن الآن الوضع مختلف تماما. عليّ أن أكرس وقتا كاملا لها وجها لوجه. كان عليّ التواجد الفعلي وإلا انقطعت أخباري عنها. كانت تستعين بالممرضات فيتصلن بي ويطلبن مني النزول إليها. كانت امرأة قوية، وربما هذا ما جعلها تصمد وتصبر على قضاء الله. كان أكثر ما يبث الرعب في نفوسنا هو انقطاع التيار الكهربائي؛ فهذا يعني توقف الأجهزة عن العمل والتعرض لطارئ مخيف.

وفي يوم اتصلت بي الممرضة تطلب مني الحضور فورا. نزلت لمقابلتها وأنا أظن أنها أمي من

تريد التحدث إليّ، لكنني فوجئت بأنها الممرضة. طلبتني لتشكو لي من أن أمي لا تمتثل لأوامر طبيبها المعالج، وأصرت على تناول بعض رقائق البطاطس التي أخذتها من طفل من أطفال العائلة. لم تستطع بلعها ودخلت العجينة اللينة في مجرى الهواء، وكان على الممرضة بذل جهد خارق باستخدام جهاز الشفط لاستخراج الطعام من مجرى الهواء، ثم يأتي دور جهاز فتح الشعب الهوائية. يستغرق الأمر ساعة كاملة بعد كل أزمة حتى تستعيد انتظام التنفس وتهدأ رئتاها. كان إجراء مؤلما لكليهما، لكن أمي كانت تشتاق لمذاق الطعام في فمها.

ـ سأتذوقه فقط، ثم أتخلص منه. لن أبلعه!

كان هذا طلبها الملح في كثير من الأحيان. كانت تشتاق لمذاق الطعام؛ لحلاوته ولملوحته.

ـ أرجوكِ امنعي الأطفال من الدخول لغرفتها بأي طعام أو شوكولاتة. فهي تطلب منهم وهم يعطونها

ما تريد.

«ماذا سيحدث لي أكثر من ذلك؟».

كان هذا ردها دائما عندما نذكرها على استحياء بأن الطبيب منع الطعام؛ لأنه سيتسبب في اختناقها. كان مجرد تذوق الطعام يسعدها حتى لو لفظته دون بلعه. يا الله! نأكل الطعام كل يوم في عجالة، ولم نفكر يوما في نعمة تذوق الطعام والاستمتاع بطعمه حلوا أو مالحا! كم نعمة نمر عليها مرور الكرام كل يوم ونحن نعتبرها أمرا مسلما به ولا نعطيها حقها من التقدير ولا نشكر الخالق جلَّ وعلا عليها؟

وازداد تدهور أداء الجهاز التنفسي. وأصبحت تتعرض للأزمات التنفسية بمعدلات كبيرة، وكان الطبيب المعالج يتوقع ذلك. لا حيلة لنا في الأمر! كان هذا رده في كل مرة نهاتفه ملتاعين. وكنت يوميا أمر عليها قبل أن أغادر لقضاء مستلزمات المنزل من مشتريات وخلافه، أو بعد عودتي وقبل

أن أصعد إلى منزلي. أجلس معها وأقص عليها أحداثا وأخبارا انقطعت عنها في عزلتها. وفي يوم طلبت مني بعض الحساء لتشربه. كانت بضع رشفات من الحساء الساخن هي السلوى الوحيدة لها. نرفض بشدة أحيانا، ونرضخ لرغبتها مرغمين أحيانا أخرى. كانت عاجزة عن مجرد السعال لطرد أي جسم غريب من حلقها! كانت تصر على تذوق الطعام وكنا نستسلم فكل ما تستطيعه هو لقيمة أو اثنتان لتتذوق ما تحب فقط. وفي يوم مررت عليها بالحساء الذي طلبته. رشفت منه رشفتين دافئتين رسمتا ابتسامة خفيفة على وجهها. وجلست معها لفترة من الوقت وكانت في وضع مقلق. كانت ضعيفة وواهنة. وأخبرتني الممرضة بأن حرارتها كانت مرتفعة، لكنها أعطتها حقنة خافضة وتداركت الأمر.

وفي اليوم التالي كان الصباح لا يختلف عن غيره، كان يعج بقائمة من المطالب والمهام التي عليّ إنجازها قبل أن أذهب لإحضار الأولاد من

المدرسة. كان عليّ الانتهاء سريعا من شئون المنزل التي لا تنتهي؛ لأذهب للاطمئنان على أمي حيث كان وضعها غير مستقر بالبارحة. انتهيت من مهامي الأساسية وارتديت ملابسي وهممت بالخروج؛ لأجد اتصالا من والدي. اتصل بي ليطلب مني النزول لأن الأمر ليس على ما يرام. كانت نبرات صوته توحي بقلقه الشديد وأخبرني بأن هناك خطبا ما.

- أمك في حالة غريبة والممرضة لم تنم طوال الليل؛ فلقد كانت ليلة عصيبة. لا أعلم إن كانت في غيبوبة أم ماذا! لا أريد إيقاظ الممرضة.

انقبض قلبي وشعرت بأن هناك شيئا جللا ونزلت سريعا. دخلت غرفتها ورأيتها وأدركت ما حدث! كانت الأجهزة تعمل بطبيعة الحال ويصم طنينها الآذان لكن دون جدوى! أمسكت بيدها الباردة وتفحصت مقلة عينها المتحجرة (إنا لله وإنا إليه راجعون).. وجدتها وقد فارقت الحياة، لكن لأن الأجهزة تعمل تلقائيا فلم يدرك أبي الأمر. لقد ظن

للوهلة الأولى أنها تتنفس، لكن عندما أدرك أنه مجرد جهاز سيعمل في كل الأحوال أدرك الأمر واتصل بي. فارقت أمي الحياة بعد رحلة كفاح طويلة مع المرض بدأتها منذ خمس سنوات بعدما أصيبت عضلات جسمها بالضعف والضمور بدون سبب معلوم، وانتهت بسنة كاملة من الشلل وفقدان الكثير من نعم الحياة.

كان أبي متأثرا بشدة لأنها عانت معاناة شديدة. كان يراها تفقد حيويتها ونشاطها يوما بعد يوم. كان يتألم لعجزها وهي من هي في نشاطها في سابق عهدها. كانت هذه هي المرة الأولى له التي يرى فيها شخصا ميتا مسجى أمامه! طوال سنوات عمره السبعين لم يمر بتجربة كهذه من قبل! سارعت بالاتصال بأخي وإخوتي وبصديقة لتساعدني في أمور الغسل؛ فلا يجب علينا الانتظار. أحضر أخي طبيب مركز الصحة ليوقع الكشف الطبي ويكتب إذنا بالدفن. كانت الساعة الواحدة ظهرا وكان الهدف هو الانتهاء من كل الإجراءات وإقامة صلاة

الجنازة بعد صلاة العصر، أي في الثالثة والنصف! كان الوقت ضيقا لكن لمَ الانتظار وإكرام الميت دفنه؟

ميت؟ يا الله!

وتبقى للموت رهبته. ويبقى الموت هو الحقيقة المرعبة الصادمة الوحيدة في حياة الإنسان مهما صال وجال في هذه الدنيا. يظل الموت هو الآية والدليل الدامغ الذي يقف الإنسان أمامه عاجزا متحيرا ضعيفا، لتنطق كل خلية بحتمية وجود إله خالق هو الذي يحيي وهو الذي يميت. مهما طال الابتلاء واشتدت المعاناة وعجز الطب عن التفسير أو التخفيف يظل الموت مترقبا، وتظل الروح تصارع حتى يأتي أمر الله. أجهزة تنفس صناعي وفقدان القدرة على الحركة والكلام والأكل. روح تصارع الحياة في جسد ميت، ومع ذلك كنا نصحو كل يوم على خبر وفاة من هم في قمة الصحة والحيوية، فسبحان خالق الروح وممسكها في جسد

بلا حراك! سبحان القادر على عكس كل قوانين البشر الذين توهموا أنهم يملكون مقاليد العلم والتكنولوجيا، ويحددون من يموت ومن لا يزال صغيرا على الموت!

بعد سنة وشهرين من المعاناة والابتلاء والصبر والتحمل في صمت أذن الله لهذه الروح بالرجوع لبارئها، وبالتحرر من أغلال الأجهزة والأنابيب. وبالرغم من أننا كنا نعلم أن النهاية آتية لا محالة وأن الأجهزة لن تضمن التنفس للأبد، فإن الأمر لم يكن مفاجئا ولا غير متوقع، ولكن تبقى للموت رهبته ويبقى الإنسان عاجزا عن التنبؤ بموعده أو كيفيته.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

غلفت المكان رهبة جليلة وتوافد الأهل والجيران على المنزل. وحضر من لم نتوقع حضوره بهذه السرعة نظرا إلى بعد المكان، لكن الله يسر له ولها.

شاركتني صديقتي وأختي في تغسيلها، فلم تكن هذه هي المرة الأولى لي؛ فقد غسلت جدتي وخالتي من قبل. وبعد أن انتهينا وقبل تكفينها رفعت أمي إصبع الشهادة! لا يصدق الكثير هذه الروايات بل يعتبرها آخرون من باب الخرافة والتوهم، لكنني رأيتها بأم عيني هذه المرة ورآها كل من حضر الغسل. رفعت إصبع السبابة اليمنى بينما ضمت بقية الأصابع وذهبت إلى ربها راضية مرضية.. صابرة محتسبة بعد عناء طال وتعددت فروعه.

ذهبنا لصلاة العصر في الموعد المحدد، وتعجب الناس من سرعة الأداء فالوقت بين تأكيد خبر الوفاة وصلاة الجنازة ضيق؛ فسبحان الله لعل بعد طول معاناة كانت لحظات وداع الدنيا سريعة وسهلة. لا أعلم لماذا لم أبكِ ولم أفقد أعصابي. ربما انشغلت بإجراءات الغسل. ربما كانت الأولوية لعقلي لا لقلبي كعادتي! لست من هذا النوع من البشر، ولا أعلم إن كانت هذه نقيصة أم مكرمة! كنت أمام

الموقف ولا أملك إلا التعامل معه بسرعة لتنفيذ المهمة.

أما الممرضة التي كانت حاضرة معنا فلم تكف عن البكاء منذ استيقاظها على الخبر الأليم. كانت تشعر بأنها أخطأت عندما استسلمت للنوم رغما عنها.

ـ غالبني النوم رغما عني! لقد كانت ليلة عصيبة انقطع فيها النفس مرات عديدة. ليتني لم أنم! ليتني لم أتركها!

ـ هذا قضاء الله سواء كنتِ مستيقظة أم نائمة. نحن لا نلومك فلا تلومي نفسك! شكرا لك على كل ما قمت به من جهد معها. سنفتقدك بعد هذه العشرة. ابقي على اتصال بي فلقد كان بيننا (عيش وملح). ولا تنسي دعوتي لحضور عرسك!

ودعت الممرضة بحرارة فلقد كانت بمثابة أخت لنا لفترة من الوقت. كانت تحكي لأمي كل مشاكلها، حتى وإن لم تستطع أمي الرد عليها. وعندما تقدم

لها عريس ليخطبها استشارت أمي وكانت تتجاوب معها بالكلام المتقطع أحيانا، وبتحريك يدها قبولا ورفضا أحيانا أخرى.

مرت أيام العزاء الثلاثة، وبدأ بعدها يراودني شعور بالغ بالفراغ الشديد. لقد كانت أمي تشغل حيزا كبيرا من يومي بما في ذلك الممرضات والأدوية وما إلى ذلك. لم أكن من مدمني شبكات التواصل الاجتماعي الذين يهرعون لنشر أخبارهم كلما لامس الهواء وجوههم! لكنني شعرت بأنني أريد أن أنفث عما في صدري من مشاعر مختلطة برهبة الموت، وكتبت ما جاش في صدري وشاركني أصدقائي في تأملاتي الفلسفية التي ولدت من رحم التجربة المريرة التي استمرت لسنوات عديدة.

حزن كل الأحفاد لموتها برغم فقدان التواصل معها مؤخرا بعد عجزها عن الكلام، إلا أنهم ذرفوا الدموع حزنا عليها. انقضت أيام العزاء الثلاثة وذهب كل في شأنه.

اجتمعنا على ضرورة أن يسافر أبي للساحل الشمالي ليروحّ عن نفسه ويأخذ قسطا من الراحة بعد رحلة صبر وكفاح. وكنا في فترة امتحانات نهاية العام فلم نستطع اللحاق به. كان الساحل مكانه المفضل الذي طالما حلم بقضاء وقته به بعد التقاعد، لكن لم تسنح له الظروف بعدما أتت الرياح بما لا تشتهي السفن ومرضت أمي. سافر ليختلي بنفسه بعد فترة عصيبة قضاها بجوار أمي رحمها الله. كان نعم الزوج والرفيق، وتحمل معها تبعات مرضها بصبر وأناة. بذل الغالي والرخيص ليخفف عنها ما هي فيه، وحان الأوان ليحظى ببعض الوقت لنفسه. أما أنا، فكان عليّ إعادة ترتيب أوراق حياتي وترتيب أولوياتي من جديد.

١٠

وتستمر خطانا على الطريق

أيها الابتلاء شكرا لك!

تلاحقت أحداث السنين الماضية في عقلي واحدة تلو الأخرى. لقد بدأ مرض أمي ـ رحمها الله ـ منذ خمس سنوات تقريبا وبدأ معه اعتمادها الكلي عليّ، ومنذ أن انتقلنا جميعا للسكن في مكان واحد زادت التزاماتي نحوها. كنت حجر الأساس في بيتي وبيت والدي. كان الاعتماد الدائم عليّ من الجميع. لم أقصر في خدمتها والعناية بها، ولبيت رغبتها الأخيرة في قليل من الحساء الدافئ، وأرجو من الله أن أكون قد رزقت ثواب البر الذي لا يضاهيه ثواب. كان عليّ بعد وفاتها وانتهاء فترة التوتر المستمر المصاحب للمرض أن أعيد ترتيب حياتي اليومية بدون وجود واحدة من أكبر مسئولياتي. لم تعد هناك ممرضات أرتب معهن يومهن من مستلزمات المريضة أو طلباتهن

الشخصية من مأكل ومشرب. لم يعد انقطاع الكهرباء يصيبنا بالرعب من توقف جهاز التنفس الصناعي، وجهاز الضخ وجهاز الشفط. لم يعد عليَّ المرور على شقتهم قبل الصعود لمنزلي. لم يعد عليَّ التواجد الدائم عند وجود زائرين لأقوم بدور المترجم قارئ الشفاه؛ لعجزهم عن فهم ما تريد قوله بسبب ضياع صوتها نتيجة الأنبوب البارز من الشق الحنجري.

كان اليوم الجديد بلا أمي غريبا ومختلفا. جلست في هدوء أفكر فيما مضى بحلوه وشره. مرت الأحداث متلاحقة نصب عيني. سبحان من يمنح الإنسان القوة ليكمل الطريق برغم ما به من صعوبات. من كان يتخيل أن السنوات الخمس الماضية حملت كل هذه الأحداث المتلاحقة؟ ترى هل لو عرف الإنسان مسبقا بما ينتظره من أحداث فسيقبلها ويرضى بها؟ هل لو كنت عرفت بكل ما سأتعرض له مسبقا كنت سأقبله بطيب خاطر؟ هل كنت سأتخيل يوما القوة التي منحها لي الله عزَّ

وجلَّ لأعتني بأم أقعدها المرض وابن مريض في الوقت ذاته؟ هل كنت أتخيل يوما أن صغيري الذي لم يبلغ التاسعة من عمره سيتحمل كل ما مرَّ به من أحداث؟ عجيبة هي النفس البشرية وما بها من طاقات دفينة لا يجليها لوقتها إلا خالقها العظيم.

أحيانا أتخيل نفسي وقد انهرت واكتأبت وانزويت بابني في انتظار المجهول. كيف يمكن أن يكون حالي وحاله؟ هل كنا سنخرج من بطن الحوت يوما ما، أم كانت ستتقاذفنا أمواج الحيرة والتردد بلا طائل؟ ماذا لو لم أدرس الحالة جيدا وأبحث عن أصل المرض وكيفية علاجه، وأستميت في البحث عن مجموعات الدعم ورفقاء الطريق لأنهل من خبراتهم الحياتية؟ ماذا لو كنت قد استسلمت لأول رأي طبي عرض عليَّ؟ ماذا لو لم أستعن بالله وألملم شعاث نفسي؟ ماذا لو أصيب ابني بالاكتئاب؟ ماذا لو تخلف دراسيا بسبب مرضه؟ هل كان سيؤثر هذا عليه نفسيا واجتماعيا؟ مهلا، بل ماذا لو تجاهلت الأمر برمته منذ البداية، ولم أسعَ لمعرفة سبب

العرج؟ ماذا لو لم أفكر في سبب الألم الشديد؟ ماذا لو آثرت السلامة؟ هل كنت سأجنب نفسي وابني كل ما مرَّ بنا؟

اقترب موعد مقابلة الدكتور «هاني» للمتابعة. كان قد طلب منا معاودة زيارته بعد إجراء أشعة جديدة بعد ستة أشهر، وها قد انقضت المدة. كان «محمد» لا يزال ممنوعا من ممارسة رياضة الجري أو القفز، وكان كل يوم يطلب العودة للعب كرة السلة. كان من الصعب أن أظل أكرر على مسامعه أنه ممنوع من ممارسة كل الرياضات باستثناء السباحة وركوب العجل اللذيْن ملَّ منهما بشدة. وكلما طلب كان جوابي أننا في انتظار رأي الدكتور. ووجدت نفسي أتحاشى الذهاب للدكتور «هاني» لأول مرة منذ سنتين متواصلتين. تعجبت من نفسي. ماذا أخشى الآن وقد مرت أصعب اللحظات وأصبحت الزيارة مجرد اطمئنان منه على سير الأمور ونمو العظمة؟ اكتشفت أنني لا شعوريا كنت أريد تناسي هذه الفترة العصيبة برمتها، وكلما

اتصلت لأخذ موعد أغلقت الهاتف سريعا قبل أن يرد «أمين» أو «إيهاب» أو «عم سيد»! كان الطريق من منزلنا في القاهرة الجديدة لعيادة الدكتور «هاني» في روكسي يستغرق ما بين نصف ساعة إلى ساعة، لكنني أبدا لم أجد غضاضة في قيادة كل هذه المسافة، فلماذا الآن أشعر بأن هذه المسافة طويلة ولا أقدر عليها نفسيا ولا جسديا؟ قمت بعمل الأشعة وبمقارنتها بالأشعات السابقة استطعت التكهن بسير الأمور في مسارها الصحيح المتوقع؛ وهذا ما زاد من شعوري بتجنب الذهاب له. ربما أردت أن نمضي صيفا هادئا طال انتظاره.

ولم أنسَ في خضم خطط إعادة ترتيب حياتي أن أتفقد مجموعة الدعم، وجهزت يوما عددا من الصور التي تلخص رحلة المرض منذ البداية وحتى اللحظة الحالية وأرسلتها لهم مع كتابة ملخص سريع، حتى يتسنى للأعضاء متابعة الأحداث. في خلال السنتين الماضيتين انضم الكثير من الأعضاء للمجموعة؛ منهم الأمهات ومنهم الآباء. لم أنسَ أن

أخص بالشكر «دونا»، و«جولي» مؤسسة مجموعة الدعم.

وفي شهر أكتوبر وفي الذكرى الثانية للعملية، ذهبنا لزيارة طبيبنا ومنقذنا. دخل «محمد» العيادة فرحا منتشيا يمشي بثقة وسعادة وسط ترحيب الجميع، بدءا بـ«أمين» و«عم سيد» ثم دكتور «مصطفى»، وانتهاء بطبيبه العظيم الدكتور «هاني». تأنق وارتدى ملابس جديدة والأهم حذاء جديدا بعد أن ظل لا يمكنه سوى ارتداء فردة حذاء واحدة لخمسة أشهر كاملة! كان حذاء واحد يكفل له الراحة ولم يستبدله لعام كامل بأي حذاء آخر. ارتدى (الجينز) لأول مرة. تذكرت أول يوم دخلت فيه هذا المكان والقلق يعصف بي ورهبة المجهول تطاردني، وهأنذا الآن أدخل وقد تبدل الخوف أمنا والمجهول واقعا مرضيا، فسبحان مغير الأحوال. شتان بين ابتسامة لازمتني أول مرة رسمتها استبشارا وتشجيعا لنفسي وله، وبين ابتسامة سعادة حقيقية نابعة من القلب.

تفحص الدكتور «هاني» الأشعة وأخبرنا بأن الأمور تسير على ما يرام بعد أن عادت الدماء لتغذية رأس العظمة، لكن لم يكتمل نمو العظمة بعدُ. كان سعيدا بالتقدم الذي أحرزناه ونصحنا بالاستمرار في السباحة وركوب الدراجات، وانصرفنا على موعد جديد بعد ستة أشهر. نظر إليّ قائلا:

- يبدو أن رغبتكِ ستتحقق، ولن يحتاج إلى مزيد من العمليات الجراحية!

وبدأت مرحلة جديدة قلت فيها الهموم الكبرى التي كانت تشغل بالي وتؤرق مضجعي وتستنزف وقتي وعقلي. قررت العودة لشغفي القديم بالكتابة، فلطالما استهوتني الكتابة في كل مراحل عمري.

كنت قد بدأت مدونة باللغة الإنجليزية قمت فيها بسرد تجربتي مع مرض ابني، ولاقت استحسانا وقبولا من كل من قرأها. خاطبت في مدونتي كل أم استيقظت لتجد أن صغيرها المفعم بالحيوية تبدل

حاله بين عشية وضحاها، كما خاطبت كل بطل صغير تحمل مرضه في صلابة وقوة. كان هدفي التالي هو مخاطبة القارئ العربي؛ لقلة الموارد التي وجدتها حول هذا المرض باللغة العربية. لا شك أن هناك من هم في مثل حالنا ولا يعرفون سبيلا للراحة. لا بد من سرد قصتنا بكل أحداثها التي تزسم البسمة على شفاهنا الآن عند تذكر كل تفاصيلها. لا أنكر أن كل ما مرَّ بي من أحداث جسام قد استنزف طاقتي ونفسيتي. لا أنكر مشقة الأمر عليَّ من جميع النواحي. لا أدعي البطولة بل أحاول أن أستمد مقوماتها من كل ما تعنيه من معانٍ مبهمة لا يفهمها إلا من كان في أمسّ الحاجة لها يوما ما.

في بطن حوت الحيرة والخوف كانت الكتابة ملاذي الآمن، وقررت كتابة تجربتي لعلها تكون مرشدا لكل قارئ مرَّ بتجربة مرض، أو أي تجربة أخرى آلمته أو تؤلمه. قصتي سيرة ذاتية لكل أم استيقظت على كابوس مخيف، لكل أم تئن كل خلية في جسمها وهي ترى صغيرها لا يقدر على الحركة،

ويعاني بلا حول له ولا قوة. قصتي لكل بطل صغير ابتليَ في جسمه ومنعه مرض ما ـ صغر أو كبر ـ من اللعب والانطلاق ومشاركة أصدقائه في كل ما تعنيه الطفولة من لهو ومرح. قصتي تبرز قوة النفس البشرية التي مهما تكالبت عليها الهموم والمسئوليات يمكنها أن تنهض كمارد جبار يتجاوز كل الحدود ويحطم كل الحواجز. إنه الأمل وإنها الإرادة.

تكرم قصتي ابني الصغير أو بطلي الصغير (الرجل الحديدي) الذي تحول خلال رحلة المرض التي بدأت منذ ثلاث سنوات من طفل صغير لا همَّ له سوى اللعب، إلى طفل آخر أكثر صلابة وتحملا للألم. كان أحيانا يتساءل: لماذا أنا؟ لماذا أصابني الله بهذا المرض دون غيري؟ هل أدركت الحكمة الإلهية الآن أيها الفتى؟

غيرت التجربة معالم حياته. تعلم معنى الصبر والشجاعة وأهمية العلم والمعرفة. شعر بمعانٍ

واكتسب ما لم أكن أتوقع أن يكتسبه في وقت قليل. عرف معنى الصحة ونعمة السلامة في الجسم، وأصبح أرق قلبا وأكثر إحساسا بمعاناة كل من حوله وكل طفل رآه وقد فقد نعمة يتمتع بها غيره. بدأ القصة صغيرا، وانتهى منها كبيرا.

استبدل ساقيه بعكازين لمدة ستة أشهر. وبدلا من الاستيقاظ صباحا للذهاب إلى المدرسة كغيره من الأطفال، أصبح يصحو متألما باكيا. وجمع مع كتبه وأقلامه عكازين، وشاشا، وضمادات، وأربطة ومحلول ملح. وأصبح يلازمه جهاز معدني مؤلم يطل بارزا من فخذه الصغيرة الضعيفة، فيؤلمه ويحد من حركته. لكنه صبر وقبل التحدي وانتصر في معركته.

كانت الجملة الشهيرة التي نتبادلها في مجموعة الدعم هي: (هناك حتما ضوء في نهاية النفق المظلم)!

وها نحن نرى النور أخيرا ونتنفس الصعداء. تنمو

العظمة ببطء لكن في ثبات بفضل الله وبراعة طبيبنا، ومعها تنمو أوراق جديدة في شجرة حياتنا.

لم تنقطع صلتي بمجموعة الدعم الخاصة بمرض (برتز) بعد غلق صفحة المجموعة الأخرى الخاصة بالمثبتات المعدنية. ظللت على اتصال أشد من أزر من يبدأ رحلة العلاج ومن لا يزال يتخبط بين تقبل الحقيقة وتحدي الصعاب. كنت أرد على كل استفسار قدر استطاعتي، وأشعر بالأسى لكل الأمهات اللاتي يعانين من تقبل الأمر، ويبثثن شكواهن لباقي المجموعة. كنت أوصيهن دائما بالتحلي بالقوة والصبر. وفي يوم ما شعرت أن هؤلاء الأطفال لا حول لهم ولا قوة، وأنهم لن يستمدوا القوة للاستمرار في هذه الرحلة التي قد تطول لسنوات إلا إذا كان هناك دعم ومساندة من الأهل.

فتحت مدونتي الإنجليزية، وقررت كتابة أهم خطاب في حياتي:

«أيها الابتلاء.. شكرا لك! نعم، شكرا لك لأنك منحتنا القوة والإصرار، وعلمتنا معنى العزيمة. أيها الابتلاء.. شكرا لك، لأنك أخرجت طاقات لم نكن نعلم بوجودها من الأساس. لقد اشتدت الغيوم وأظلمت السماء يوما، ولم نكن نتخيل أن الغيث سيسبغنا بالنعم بعدها!

رفضنا للابتلاء لن يغير من الواقع شيئا. الابتلاء واقع واقع شئنا أم أبينا. تذمر كما تشاء! اغضب كما تشاء! لن ينالك سوى المزيد من الصعوبات التي تضيفها بيدك إلى ما أصابك بالفعل. لا أنكر أن تقبل الابتلاء ليس بالأمر الهين. شاهدت الكثير من الأهل الذين انهاروا وعجزوا عن التأقلم مع المرض أو فقد حبيب أو أي مشكلة أخرى غيرت مسار حياتهم. لكن التعامل مع الابتلاء فن وثقة لا يأتيان إلا بالاستعانة بالله. كما يصيبنا الله بالابتلاء يمنحنا القوة والحكمة فقط إذا أخلصنا في تقبلنا للأمر، واستسلمنا كامل الاستسلام لقدر لا نملك منه فكاكا ولا نستطيع له ردا!

أيها الصغير، لقد تألمت وبكيت وحرمت من الكثير من متع الطفولة، لكنك قد فزت بالكثير.

كما امتلأ جسدك الصغير بالندبات، امتلأ قلبك الصغير بالرحمة. تعلمت الصبر والعزيمة. تعلمت القوة والتحدي. أصبحت تقدر العلم الذي وصل بين قارتين في لمح البصر ليساعدنا على اجتياز المحنة. أصبحت أيها الصغير تحلم بيوم تصبح فيه جراحا ماهرا كطبيبك لترسم البسمة على شفاه الأطفال.

يمكنك أن تتعثر قليلا في الطريق، لكن مهمتك أن تحول عثرتك لوثبة قوية. وثبة تعوض بها ما فاتك وتدفعك للأمام بقوة وثبات».